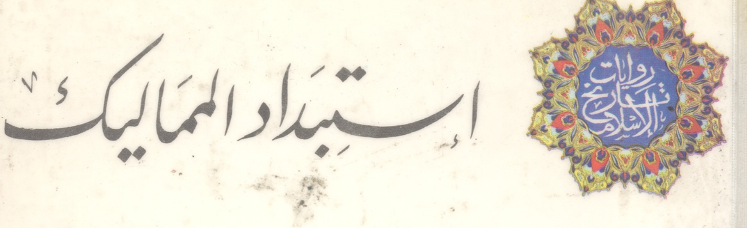


استبداد المماليك

جرجي زيدان

استبداد المماليك

تشرح احوال مصر وسوريا في اواخر القرن الماضي ، وحكم علي بك الكبير ومعاصريه من مماليك مصر وامراء الشام ، والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الامور السياسية والاجتماعية

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

على بك الكبير	: شيخ البلد فى مصر
عثمان باشا	: والى مصر التركى
محمد بك ابو الذهب	: خليفة على بك وصهره
الأمير يوسف شهاب	: حاكم لبنان
الشيخ ضاهر الزيدانى	: حاكم عكا
الأميرال اورلوف	: قائد الاسطول الروسى
السيدة نفيسة المملوكية	: زوجة على بك
السيد المحروقى	: من السادة الاشراف بمصر
السيد عبد الرحمن	: تاجر مصرى كبير
حسن	: ابن السيد عبد الرحمن
سالمة	: زوجة السيد عبد الرحمن
على	: خادم الأسرة
عماد الدين	: رسول الشيخ ضاهر

فى وكالة الصابون

استولى على مصر بعد الخلفاء الفاطميين كثير من السلاطين ، ظلت تحكم باسمهم الى أن آل امرها الى المماليك ، فاستبدوا فى احكامهم ، وضج أهلها بالشكوى منهم . واستمر الحال على هذا المنوال حتى غزاها الخليفة التركى السلطان سليم ، فى عهد سلطانها الغورى ، فتم له فتحها ودخلها بعد قتله فى وقعة مرج دابق ، حيث شنق خليفته طومان باى ، فصارت مصر منذ ذلك الحين تابعة لتركيا

ونظرا الى بعدها من دار الخلافة ، رأى السلطان سليم ان يجعل فى ادارتها انقساما يأمن معه خروجها من طاعته ، فجعل حكومتها مؤلفة من ثلاث سلطات :

اولا ــ سلطة الباشا : وهو الوالى الذى يرسله من الاستانة ، ومقره فى قلعة القاهرة ، ويختص بتلقى اوامر السلطنة وتبليغها ومراقبة تنفيذها

ثانيا ــ سلطة البكوات : وهم بقية الحكام المماليك ، وقد عهد اليهم فى ادارة المديريات وحفظ الامن والنظام فى البلاد ، كما هو شان المديرين الآن

ثالثا ــ سلطة الوجاقات : وهى القوة العسكرية . وكانت مؤلفة من الانكشارية ، والمتفرقة ، والدلاتية (جند المغاربة) ، وغيرهم . وعليها جباية الضرائب والاعانات والغرامات وما اليها من الاموال التى تؤخذ لخزانة الدولة ، كما ان عليها الدفاع عن البلاد عند الحاجة الى ذلك

على ان البكوات المماليك لم يقنعوا بالسلطة الكبيرة التى منحت لهم ، فما لبثوا قليلا حتى عادوا الى الاستبداد

وكان من بينهم (شيخ البلد) ـ المنوط به حكم القاهرة والسهر على استتباب الامن والنظام فيها كما هو شأن محافظها الآن . غير انه لم يكن يقنع بما دون السلطة المطلقة ، ولم يكن للباشا التركى بجانبه من السلطة الا مظاهر جوفاء ، لا اثر لها على الاطلاق

فلما كانت سنة ١٧٦٣ ، وآلت مشيخة البلد الى على بك الكبير ، كان اكثر المماليك شهامة واعظمهم همة واشدهم بطشا . ولكنه طمع فى الاستقلال بمصر ، وحدثته نفسه بافتتاح البلاد المجاورة لها ايضا

ولم تكن القاهرة فى تلك الأيام على ما هى عليه الآن من اتساع العمران وكثرة السكان . فالأحياء المعمورة فيها حينذاك لم تكن تزيد على أحياء : الحمزاوى والغورية والجمالية والنحاسين وما جاورها . اما الفجالة وشبرا والعباسية والاسماعيلية والجزيرة وغيرها من الأحياء الحديثة فلم تكن قد انشئت بعد

وكان للمدينة سور منيع به ابواب عدة ضخمة تغلق عقب غروب الشمس كل يوم ، فلا يستطيع احد بعد ذلك ان يدخل المدينة او يخرج منها الا باذن خاص ، وما زالت بعض هذه الأبواب وآثار السور باقية حتى اليوم

اما اغنى هذه الأحياء كلها واكثرها سكانا وروادا ، فكانت هى الأحياء الواقعة فى منطقة الجمالية وما جاورها من الغورية وخان الخليلى حيث تقوم مختلف المتاجر وقصور الأغنياء

وهناك فى الجمالية كانت توجد وكالة الصابون ، وهى يومئذ مجتمع كبار التجار وأصحاب الثروة ، فلا تخلو ساحتها الرحيبة من مئات منهم طول النهار ، بين بائعين ومشترين ومتفرجين

وكان من بين تجار تلك الوكالة ، فى العهد الذى جرت فيه وقائع روايتنا هذه ، تاجر مصرى يقال له : (السيد عبد الرحمن) . اشتهر رغم ضخامة ثروته واتساع تجارته بالتواضع الجم والاستقامة والبر بالفقراء ، مع رجاحة العقل والاتزان . وقد تعود ان يقضى نهاره فى الوكالة يشرف على حركة البيع والشراء فى متجره الكبير ،

فاذا جاء المساء عاد الى منزله فى شارع الكعكيين فى الغورية حيث زوجتـــه ، وولده الوحيد منهـــا ، وبعض السرارى الشركسيات والحبشيات

ولولا ما كان يقاسيه هو وغيره من استبداد المماليك وجورهم ، وكثرة الضرائب التى يطلبونها من وقت لآخر لكان له من ثروته الضخمة وتجارته الرابحة وحياته المنزلية الهادئة ما يجعله أسعد السعداء ، ولا سيما أن ولده الوحيد السالف الذكر ، واسمه حسن ، كان قد اتم تعليمه فى الجامع الأزهر ، ثم التحق بالبيمارستان المنصورى القائم فى شارع النحاسين امام الطريق المؤدى الى بيت القاضى ، حيث ابدى تفوقا فى دراسة الطب على يد أستاذ مغربى فيه ، واشتهر بين زملائه وعارفيـــه بالاستقامة والذكاء والاتزان كابيه . فلم يكن يغشى مكانا غير البيت والمدرسة ؛ ولا يمل المطالعة للاستزادة من المعارف والعلوم

□

امضى السيد عبد الرحمن نهاره حتى العصر مشرفا على العمل فى متجره بوكالة الصابون كعادته . وكان ذلك فى يوم من أيام سنة ١٧٧٠ . فلما سمع اذان العصر ، اشار الى خادمه فجاء بسجادة فرشها على دكة فى ركن من المتجر ليصلى عليها العصر بعد أن توضأ لهذا الغرض

ولم يكد السيد عبد الرحمن يبلغ الدكة وهو يتمتم ببعض الادعية ويحمد الله على ما أولاه اياه من النعم والخيرات ، حتى لحق به احد الكتبة فى المتجر ، وانباه بأن بعض موظفى الحكومة جاءوا يطلبون مقابلته . فاستعاذ بالله من ذلك ، لعلمه بأن هؤلاء الموظفين لا يأتون الا لطلب ضريبة أو اعانة او توقيع عقوبة مالية بغير ذنب ولا جريرة

وحدثته نفسه بأن يرجىء مقابلتهم حتى يصلى . لكنه خشى أن يهيج ذلك غضبهم وانتقامهم ، فرفع طرفه الى السماء وتنهد ،

ثم عاد أدراجه الى مجلسه المعتاد فى المتجر ليستقبلهم هناك ويرى ما وراء هذه الزيارة

وكان هــؤلاء الموظفون ثلاثة : احدهم الجابى ، وهــو فى زى المماليك المؤلف من السراويل الفضفاضة الطويلة المشدودة فــوق الـكعبين ، والعمامة فوق القاووق ، وحول وسطه منطقة عريضة علق بها خنجر من الامام ، وعلى منكبيه جبة تدلى على جانبهـا الأيمن سيف مغقوف ، وقد تغضن وجهه وشاب شعر راسه . والثانى جندى يحمل فى يده دفترا كبير الحجم كتبت فيه اسماء التجار وغيرهم من الملاك والعمال ، وبيانات عن الضرائب المطلوبة من كل منهم . أما الثالث فهو الـكاتب ، وعلى راسه عمامة كبيرة ، وفى منطقته دواة مستطيلة من النحاس

فلما دخل عليهم السيد عبد الرحمن ، بالغ فى تحيتهم والترحيب بهم ، وأسرع فى مشيته للقائهم متكلفا البشاشة والابتسام ، ثم أمر لهم بالقهوة والغليون ــ اداة تدخين التبغ فى ذلك العهــد ــ ثم جلس بين أيديهم يكرر التحية والملاطفة اجتذابا لرضاهم عنه . وقلبه يخفق بين جوانحه مخافة أن يكون مجيئهم لأمر من ورائه خسارة له

وضاعف من خشيته وريبته أن الجابى ، لم يزده ذلك كله الا غلظة وغطرسة ، وبقى صامتا يرمقه شزرا فى ازدراء ملحوظ ، وقد جلس جلسة الـكبرياء واضعا احدى ساقيه فوق الأخرى . فلما جاء الخادم بالقهوة وبدأ بتقديمها له متأدبا ، أشاح عنه بوجهه ، والتفتت الى السيد عبد الرحمن ، وقال له غاضبا : « اننا لم نأت لنشرب قهوتك ، ولا حاجة لنا بها ، وانما جئنا نطلب حقوق الدولة ! »

فأجفل السيد عبد الرحمن ، وتحقق وقوع ما كان يحذره ، لـكنه كظم ما به متجلدا وقال متظاهرا بالبشاشة : « أهلا وسهلا ومرحبا بالسادة الأجلاء ، مروا بما شئتم فما نحن الا عبيد مولانا على بك ورهن أمره فى كل وقت ! »

فقال الجابى : « مطلوب منك أن تدفع الف نصف ، مساعدة للحملة الذاهبة لنجدة شريف مكة بعد ايام »

فاستكثر عبد الرحمن هذا القدر المطلوب من ماله ، رغم دفعه ضرائب باهظة منذ عهد قريب ، لكنه لم يجرؤ على اظهار ذلك ، واكتفى بأن قال : « هل هذا المال مطلوب دفعه فورا ؟ »

فنهض الجابى مغضبا حانقا وصاح به قائلا : « ما شاء الله !. ومتى تظن أن تدفعه أذن ؟.. أتريد أن يكون ذلك بعد عودة الحملة أو هلاكها ؟ .. أم لعلك استكثرت ان تدفع الف نصف من الالاف المؤلفة التى تحصل عليها عفوا بلا تعب من اموال الناس وانت جالس على وسادتك فى أمان واطمئنان ، بينما نحن نتجشم الاخطار والأسفار لحماية بلادكم والدفاع عنها ؟. كلا يا سيدى ثم كلا . يجب أن تدفع الفين اثنين لا الفا فقط . فهل فهمت ؟! »

فندم عبد الرحمن على تعجله بالقاء ذلك السؤال ، ووقف وقد امتقع لونه وارتجفت أطرافه ، وخشى أن يضاعف الجابى قيمة الضريبة المطلوبة مرة ثانية ، فمد يديه نحوه اشارة التوسل والخضوع وقال : « العفو يا سيدى الجاويش ، انى ليسرنى ان اقوم بالواجب على وزيادة ، وانما اردت بالاستفهام أن أعرف هل هناك فرصة لتأجيل الدفع أم لا ، فالحالة التجارية كما تعلمون ليست فى هذه الايام على ما يرام ، وسبق أن تفضل جناب الخازندار بمثل هذا التأجيل مراعاة لظروف مماثلة »

فازداد غضب الجابى ، وانتهر السيد عبد الرحمن بشدة ، وقال : « اتشكو الفقر وانت قد ابتلعت أموال الناس ، وعشت من الأرباح الطائلة فى رغد ونعيم ، بينما نحن فى شقاء دائم وتعب لا يطاق ، وتلقى بأنفسنا الى الهلاك دفاعا عنكم وعملا على راحتكم وطمأنينتكم ؟ ام نسيت ان تظلمك للخازندار يعنى اننا ظلمناك ولم نعدل فى تقدير المال المطلوب منك ؟! »

فأخذ السيد عبد الرحمن يستعطف الجابى ويحاول استرضاءه واتقاء غضبه بكل وسيلة . ثم نادى كاتب المتجر وامره بأن يعد

الفي نصف ويحضرها فورا ، فحنى الكاتب راسه سمعا وطاعة ومضى لتنفيذ ما امر به . ثم عاد بالمبلغ المطلوب بعد قليل فسلمه للسيد عبد الرحمن ، وقدمه هذا للجابى فتناوله منه متظاهرا بعدم المبالاة ، وساله : « كم نصفا دفعت ؟ »

قال : « دفعت الألفين اللذين طلبتموهما »

فقذف الجابى بالكيس الذى به النقود الى الأرض ، ثم نهض مغاضبا ، وصاح بالسيد عبد الرحمن محتدا يقول : « لقد أبطرتكم النعمة . االى هذا الحد بلغ جهلكم وغروركم وقلة انسانيتكم ، أم حسبت اننا عبيد لك أو خدم عندك ؟ »

فارتعدت فرائصه ، وازداد امتقاع وجهه ، وابتلع ريقه بصعوبة لجفاف حلقه ، ثم دنا من الجابى وقال فى خشوع : « العفو يا سيدى .. لقد اطعت امركم . ولى الشرف بهذه الطاعة الواجبة . فماذا اغضبكم ؟ »

فقال الجابى : « هل عميت عن حق الطريق ؟ »

ففطن التاجر الى انه لم يدفع للجابى بعض المال لنفسه فوق الضريبة كما هى العادة . وكان الخوف قد انساه ذلك ، فبادر بالاعتذار والاستغفار ، مؤكدا انه لا يمكن أن يغفل اداء مثل هذا الواجب المقدس ، وانما وقع ذلك سهوا منه ومن كاتبه . فقال الجابى : « حقا انكم جهلة متاخرون ، لا تحترمون موظفى حكومتكم وتتجاهلون حقوقهم . وكان يجب أن تدفع حق الطريق قبل دفع الاعانة نفسها »

فأخذ السيد عبد الرحمن يتضرع اليهم أن يغفروا له ذلك الخطأ غير المقصود ، مبديا استعداده لدفع ما يأمر به الجابى ، فقال هذا : « لا تطل الكلام ، ادفع مائة نصف »

قال : « سمعا وطاعة » . ثم انطلق الى خزانته وجاء بالمال المطلوب فى احدى يديه ، وفى الأخرى مثله لكل من الكاتب والجندى حامل الدفتر ، ثم سلم كلا منهم نصيبه من حق الطريق ، وتنهد دلالة على الارتياح ، ووقف بين ايديهم متادبا ، وفى نفسه انه

ارضاهم جميعا وتخلص من شرهم ، ولا يلبثون قليلا حتى ينصرفوا فيعود الى اداء صلاة العصر قبل أن يفوت وقتها

وشد ما كان عجبه وجزعه حين راى الجابى يشير الى الكاتب الذى معه ، ويأمره بمراجعة الدفتر لعل هناك ضرائب اخرى لم تسدد بعد . فنظر الكاتب فى الدفتر قليلا ثم التفت الى الجابى وقال : « ان له ارضا فى الشرقية يدفع عنها كيسين كل سنة عشورا . والمطلوب ان يدفع الآن عشور ثلاث سنوات سلفا ، لأن الديوان محتاج الى نفقات كثيرة »

فوجم السيد عبد الرحمن ثم تمالك نفسه وقال للجابى : « عفوا يا سيدى . ان هذه الارض لم تعد ملكا لى ، اذ انتى بعتها منذ سّنة »

وظن ان الجابى سيقتنع بهذه الحجة ويعفيه من العشور المطلوبة . ولكن هذا بدلا من الاقتناع وضع يده على مقبض سيفه ورد عليه بقوله : « أتريد اختلاس أموال الديوان بالكذب والبهتان ؟. ام تريد أن نكذب دفتر الحكومة ونصدق دعواك .. لابد من دفع العشور المطلوبة الآن والا كنت الجانى على نفسك »

فتلعثم التاجر ولم يستطع جوابا لعلمه ان ليس اسهل على الجابى من قتله ونهب كل ما فى متجره . ثم نادى كاتب المتجر وسأله أمامهم : « هات ستة أكياس » . فقال الكاتب : « ليس فى الخزانة الآن الا كيسان اثنان ، فهل آتى بهما ؟ »

وعبثا حاول السيد عبد الرحمن ان يستعطف الجابى ليمهله الى اليوم التالى ريثما يدبر بقية المال المطلوب ، فاستاذنه فى الخروج لاقتراضه من أحد التجار ، فلما اذن له خرج يطوف بمتاجر زملائه فى الوكالة ، حتى وفق الى من أقرضه الاكياس الاربعة الباقية ، فعاد بها الى متجره يتنازعه عامل الاسف على ما تجشم من خسائر مالية فادحة ، وعامل الشكر لله على ان نجاه من القتل بيد الجابى المتكبر الجبار

وما بلغ المتجر حتى وجد كاتبه جالسا يبكى وينتحب بالباب ،

والدم يسيل من جرح في راسه . فسأله : « ما هذا ، وأين الجابي ومن معه ؟ »

قال : « لم تكد تخرج حتى نادوني واخذوا الكيسين طالبين ان احضر لهم الأكياس الباقية في الحال لأنهم لا يستطيعون الانتظار اكثر مما انتظروا . فلما كررت لهم الاعتذار بخلو خزانة المتجر ، اعتدوا على بالضرب ونهبوا ما استطاعوا نهبه من السلع المعروضة فى المتجر ، ثم انصرفوا حانقين متوعدين ! »

فاستعاذ السيد عبد الرحمن بالله من ذلك الظلم المبين ، وراح يندب سوء حظ مصر ونكبة اهلها بحكم المماليك المستبدين ، وجلس فى المتجر مطرقا مفكرا ، ثم رفع راسه بعد قليل ، ومسح دمعة انحدرت من عينه على خده ، وعزى نفسه قائلا : « الحمد لله على ان الخسارة لم تتعد الاموال ، ولو انهم قتلونى ما طالبهم بدمى احد »

ثم نهض ومشى الى الدكة التى فرشت عليها السجادة للصلاة ، فصلى فى خشوع وايمان ، ودعا الله ان يقيه شر أولئك اللصوص الطغاة غلاظ القلوب والأكباد

▭

جلس السيد عبد الرحمن فى متجره بعد ان ادى صلاة العصر ، يفكر فى الظلم الذى حاق به من الجابى وصاحبيه . وفيما هو فى ذلك. دخل عليه رجلان فى زى كتبة الديوان وفى يد كل منهما دفتر ، فوقع الرعب فى قلبه وعاد اليه اضطرابه أشد مما كان . على أنه جاهد نفسه حتى لا يظهر عليه شيء من ذلك ، وخف الى استقبالهما والترحيب بهما ودعاهما الى الجلوس بجانبه . ثم أمر لهما بالقهوة والغليون ، واخذ يلاطفهما معربا عن اغتباطه بتشريفهما اياه بالزيارة

ومع انهما كانا اقل خشونة من الجابى وصاحبيه ، وكان هو على يقين من انه دفع اكثر من قيمة الضرائب التى يحصلانها باسم عوائد الوالى والأغا (رئيس الشرطة) . والمحتسب (ملاحظ المكاييل والموازين

والاسمار) . بقى خائفا يترقب شرا من وراء زيارتهما . لعلمه فى الوقت نفسه بانهما وامثالهما ليس لهم رواتب من الحكومة بل هم يفرضون لانفسهم ضرائب شهرية على التجار واصحاب الحرف ، يقدرونها حسبما يتراءى لهم،وربما اخذوها مرتين او ثلاثا فى الشهر، بغير رحمة ولا شفقة

ولم يطل به الانتظار حتى وقع ما كان يحذره ، فنظر احد الكاتبين فى الدفتر الذى يحمله والتفت اليه قائلا : « مطلوب منك الآن مائة نصف من عوائد الحسبة ، ومثلها من عوائد الوالى والاغا »

فقال : « اننى اذكر انى دفعت هاتين الضريبتين منذ بضعة أيام فقط »

وهنا صاح الكاتب الآخر فى وجهه قائلا : « كيف تقول مثل هذا الكلام وانت تاجر كبير تربح الكثير ؟ . وهل جئنا اذن لنختلس اموالك ؟ . . ها هو ذا الدفتر أمامك وقد سجل فيه ما دفعت وما يجب أن تدفعه . وهو مال الحكومة كما تعلم ، ولا سبيل الى التهرب من دفعه ! »

فاستعاذ السيد عبدالرحمن بالله من شر ذلك اليوم،وقال : «العفو سيدى . انى لم أقصد شيئا من ذلك ، وانما ذكرت ما اعتقدت انه الحقيقة ، ولعلى واهم . وجنابك اصدق على كل حال . فمعذرة »

ثم نهض وقدم لهما المال المطلوب ، وفوقه (حق الطريق) لكل منهما ، وقال : « أرجو قبول معذرتى مع خالص احترامى وشكرى على أن شرفتمونى بهذه الزيارة الكريمة »

فضحك الكاتب الأول متظرفا وقال له : « انت رجل لطيف يا سيد عبد الرحمن » . ثم نظر الى قطعة من الحرير الثمين كانت بين السلع المعروضة فى المتجر وقال : « بكم تبيع هذه القطعة ؟ . . انها تصلح قباء (قفطانا) لى »

فقال : « هى لك يا سيدى وقد وصل ثمنها » . ثم أمر بعض عمال المتجر بأحضار قطعة مماثلة : وقدم القطعتين للكاتبين متأدبا

وهو يقول : « انه لشرف عظيم ان تحوز بضاعتى اعجاب رجال الحكومة » . فاخذا القطعتين وانصرفا مشيعين بكل احترام

وكانت الشمس قد اوشكت ان تغرب،فعجل السيد عبد الرحمن بانجاز ما لديه من أعمال ضرورية مثل كتابة الخطابات للعملاء ومراجعة حساب البيع والشراء فى ذلك اليوم . كما اعاد ترتيب السلع فى المتجر . ثم هم باغلاق المتجر والعودة الى منزله قبل ان يسود الظلام، ويتعرض لاخطار الطريق . اذ كانت الطرقات والأسواق فى ذلك الحين لاتضيئها سوى بعض المصابيح الضعيفة الخافتة الضوء ، معلقة على ابواب الحارات وبعض المنازل

وفيما هو يغلق المتجر ، جاءه بواب الوكالة مهرولا يقول : « لقد عاد الجابى يا سيدى ! »

فاجفل واستعاذ بالله من شر هذه العودة ، واخذ يلعن سوء الحظ الذى جعله يحترف التجارة وأطمع فيه أولئك الحكام الذين لا يرحمون

وبعد قليل وصل الجابى ، فاذا به يترنح من فرط سكره ، وقد امسك خنجره بيده . ومن خلفه رفيقاه فى مثل حاله . فهم السيد عبد الرحمن بالفرار من وجوههم ، لكنه خشى ان يدركوه ويقتلوه ، فآثر البقاء وترامى على يد الجابى يهم بتقبيلها متذللا متضرعا ، فدفعه هذا بقوة وانتهره قائلا : «أهكذا تهرب من دفع مال الميرى يا خائن ؟» . واخذ يكيل له افحش الفاظ الشتم والسباب ، ويهدده بالخنجر الذى فى يده

فجثا السيد عبد الرحمن بين يديه ، وهم بتقبيل قدميه وقال : « انى عبدكم يا سيدى ، وهذا حانوتى بين أيديكم فخذوا منه كل ما تريدون ، فانا رهن اشارتكم »

فقال الجابى وهو ما زال يترنح : « حسنا ، اذن هيا ادفع المطلوب منك ، واياك أن تعود الى مثل ذلك التهرب »

فسارع الى احضار الاكياس الأربعة التى اقترضها ، ودفعها له ومعها (حق الطريق) لكل منهم . وهو يدعو لهم بطول العز والبقاء

فقهقه الجابى الثمل مغتبطا وقال : « حسنا . حسنا . يلوح لى انك

رجل عاقل حسن التصرف » . ثم اغمد الخنجر واعاده الى موضعه فى منطقته ، وهم بالانصراف

وفيما كان التاجر يشيعه بكلمات الشكر والدعاء ، دنا منه الجندى حامل الدفتر ، وهمس فى اذنه قائلا : « ان الديوان امر بتجنيد ولدك واخذه الى الحرب فى الحجاز مع الحملة الذاهبة الى هناك بعد ايام . وذلك لأن جنود المماليك لا يكفون لهذا الغرض ، ولا بد من امدادهم بجنود آخرين من سكان البلاد المصريين والأتراك والمغاربة والشوام »

فبغت السيد عبد الرحمن ، وكاد قلبه يقف لهول هذا النبأ المرعب، وشعر بأن كل ما لحقه من الظلم والاهانة والخسائر المالية الجسام لايعد شيئا يستحق الذكر بجانب أخذ ولده الوحيد الى الحرب

وادرك الجندى ذلك منه ، فاقترب منه وهمس اليه مرة أخرى قائلا : « اطمئن ياسيدى . واشكر الله على أن هيأ لك ولولدك مخرجا من هذا المأزق . فان جناب الجابى جزاه الله خيرا قد رثى لحالكما ، واعمل نفوذه وحيلته لاعفاء ولدك من ذلك التجنيد. واظن انه استحق بذلك أن تشكره وتكافئه على معروفه هذا ببعض المال ! »

فتنهد التاجر ، وذهب عنه الروع ، وشعر بانه مدين بسعادته لمعروف ذلك الجابى المستبد السكران ، فهم بيديه يقبلهما والدموع تطفر من عينيه . ثم نادى خادمه وارسله الى التاجر الذى اقترض منه الاكياس الاربعة فى العصر ، ليقترض له مثلها على ان يردها له كلها فى الغد . ثم جلس مع الجابى وصاحبيه فى انتظار عودة الخادم ، ولسانه يلهج بشكرهم والثناء على اريحيتهم ومروءتهم

وانتهز ثلاثتهم هذه الفرصة ، فاخذوا فى انتقاء ما خف حمله وغلا ثمنه من السلع الموجودة فى المتجر واخذها لانفسهم وهو لا يستطيع أن يمنعهم ، بل كان يعرب لهم عن اغتباطه بذلك . فلما عاد خادمه بالاكياس الاربعة المقترضة ، تناولها منه ، واعطى الجابى كيسين ، وكلا من الجندى وكاتب الجابى كيسا . فأخذوها وانصرفوا بها وبما انتقوه من السلع

وما كادوا يخرجون من الوكالة حتى سارع السيد عبد الرحمن الى اغلاق المتجر ، وغادرها هو الآخر عائدا الى منزله ، وقد سدل

الليل نقابه ، وفى يده مصباح من الورق يستعين به على تبين الطريق

□

كان من عادة السيد عبد الرحمن ان يمر فى طريق عودته الى المنزل كل مساء بالبيمارستان المنصورى الذى يدرس الطب فيه ابنه حسن، فيصطحبه من هناك الى المنزل

ولما وصل الى البيمارستان ، وجد ابوابه مغلقة ، فادرك انه تأخر عن الموعد الذى تعود المرور به فيه لاصطحاب ابنه . وتذكر ما وقع له فى متجره ذلك اليوم من الاهانات والخسائر ، ولكنه حمد الله على ان نجى ولده الوحيد من خطر التجنيد . وواصل سيره حتى وصل الى شارع النحاسين ، فسمع وقع اقدام خلفه من بعيد ، فأوجس فى نفسه خيفة ، وانزوى فى منعطف هناك ، حتى مر به القادمون ، وتبين من كلامهم انهم جماعة من الجند ، بينهم الجابى وصاحباه . فبالغ فى الانزواء حتى بعدوا ، وامن شرهم ، ثم عاد بمصباحه الى الشارع ، وواصل سيره ، وهو لايكاد يرى ما أمامه لضعف الضوء ، وشدة قلقه واضطرابه

ولما بلغ شارع الكعكيين ، واقترب من الحارة التى بها منزله ، لاحظ ان باب الحارة مفتوح على غير العادة . اذ كانت ابواب الحارات تغلق كلها عقب الغروب . فاشتدت وساوسه واسرع فى مشيته ليقف على سبب ابقاء الباب مفتوحا ، واخذ يدعو الله بقلبه الا يكون السبب مما يسوء

وقبل ان يبلغ الباب ، سمع شخيرا عميقا بالقرب منه ، ولمح على ضوء مصباحه الخافت جسم انسان ممددا على الارض ، فدنا منه وقرب المصباح من وجهه فتبين انه البواب ، وانه جريح يسيل الدم من راسه ووجهه ، وبجانبه الخشبة الغليظة التى توضع خلف باب الحارة من الداخل ويدخل بعضها فى الحائط لتكون بمثابة المزلاج . وكانوا يطلقون عليها اسم (الدقر) . وقد لو[illegible]ت بالدم السائل من جرح المسكين

واخذ السيد عبد الرحمن ينادي البواب باسمه ، فلم يستطع هذا جوابا ، واستمر في شخيره وهو يئن أنينا خافتا متقطعا . فأدرك انه في غيبوبة الموت ، واشتد خفقان قلبه وارتعدت فرائصه لهول ذلك المنظر المروع . وحدثته نفسه بأن يبلغ الامر الى رجال الشرطة في مقرهم الخاص بالمنطقة . ثم خشي ما قد يجره عليه هذا من الظلم والاهانة . كما رأى ان بقاءه بجانب البواب الصريع قد يوقعه في تهمة قتله وهو بريء منها . فغادر المكان مسرعا ودخل الحارة ملتمسا الطريق الى منزله فيها . وما كاد يخطو بضع خطوات حتى سمع وقع أقدام كثيرة خلفه ، فالتفت فاذا برجلين كأنهما ماردان ، يرتديان ملابس قصيرة وفي يد كل منهما عصا غليظة طويلة ، وصاح به أحدهما قائلا : « قف مكانك يا مجرم ، اتظن ان التخلص من جريمة القتل سهل الى هذا الحد ؟! »

فوقف السيد عبد الرحمن ، وقد امتلأ قلبه رعبا ، ولم تعد ساقاه المتخاذلتان المرتعدتان تقويان على حمله ، ولا سيما بعد ان رأى أحد الرجلين رفع عصاه وهم بأن يهوى بها على رأسه . على أنه تحامل على نفسه متجلدا ، وقال للرجلين في صوت متهدج : « لست والله مجرما ، ولا أنا ممن يستطيعون قتل هرة »

وكان جوابهما أن انقض عليه أحدهما وقبض على عنقه بيد من حديد حتى كاد يزهق روحه خنقا ، بينما أطفأ الآخر المصباح ، وراح يجرد التاجر من كل ما يحمله من نقود وثياب واوراق وحلى وغيرها . ثم ألقياه بقوة على الارض وتركاه ذاهلا يئن من فرط الألم ولاذا بالفرار ، بعد أن هدداه بالقضاء على حياته ان هو فتح فمه بكلمة واحدة !

ولم يسعه الا الامتثال ، فبقي صامتا ساكنا حتى ابتعدا ، ثم نهض ومشى الى منزله بما بقي عليه من الملابس الداخلية ، وهو عاري الرأس حافي القدمين . فلما اقترب من المنزل سمع فيه صراخا وعويلا فازداد اضطرابه ، وطرق الباب طرقا شديدا ، فأطل بعض الخدم من نافذة تشرف على الباب ولم يستطيعوا معرفته لتغير هيئته وملابسه ولضعف ضوء المصباح المعلق بالباب ، وحسبوه

لصا أو محتالا فانهالوا عليه بالشتائم والحجارة . لكنه صاح بهم مهددا متوعدا ، واخذ يدعوهم باسمائهم حتى عرفوه ففتحوا له الباب واستقبلوه معتذرين باكين . ورأى الجوارى محلولات الشعر يلطمن وجوههن نادبات معولات . وعلم منهن أن زوجته وحدها فى غرفتها ، وانها تكاد تكون غائبة الوعى كأنما أصيبت بالذهول أو الجنون . وذلك لان عساكر المماليك جاءوا الى المنزل منذ قليل وهم سكارى ، وقبضوا على ولدهما حسن وساقوه الى الديوان تمهيدا لتجنيده وارساله الى الحرب !



فى قلعة القاهرة

ادرك السيد عبد الرحمن ان الجابى هو الذى اقتحم منزله واخذ ولده ، رغم الاكياس والسلع التى اخذها منه فى المتجر هو ومن معه ، فطفرت الدموع من عينيه حنقا وحزنا . ومضى الى زوجته فى غرفتها فوجدها قد حلت شعرها وشقت ثيابها وتورم خداهـا واحمرت عيناها من شدة اللطم والبكاء . وما وقع نظرها عليه حتى صاحت قائلة : « لقد اخذوه .. اخذوا حسنا الى الحرب والقتل » . واستأنفت اللطم والعويل

ولم يستطع مغالبة تأثره الشديد بهذا المنظر ، فاخذ هو الآخر يلطم وجهه وأطلق لدموعه العنان . وشاركهما فى ذلك كل من فى المنزل من الخدم والجوارى

واخيرا ، اقتربت منه زوجته وهى على تلك الحال وقالت له : « الا تخرج للبحث عن حسن والوقوف على ما تم فى أمره ، عسى ان توفق الى انقاذه باى ثمن ؟ »

فقال : « لو قبلوا أن افتديه بكل ما املك ، وفوقه حياتى نفسها ، ما احجمت عن افتدائه . وقد بذلت للجابى كل ما طلب وزيادة ، على امل انه اعفاه من التجنيد رحمة بنا . لكنه لعنه الله ابى الا ان يفجعنا فى مالنا وولدنا »

فقالت : « سينتقم الله منه ومن كل ظالم عما قريب . لكن كيف نصبر على فراق وحيدنا وفلذة كبدنا ، ونتركهم يأخذونه من الدار الى النار ؟ »

فتنهد السيد عبد الرحمن ، وصر بأسنانه غيظا من ذلك الظلم ،

ثم قال لزوجته : « وماذا اصنع وانا لا استطيع الخروج من المنزل الآن ؟ »

فأبدت دهشتها وقالت : « وما الذى يمنعك من الخروج ؟ »

قال : « يمنعنى أن على باب الحارة قتيلا مضرجا بدمائه ، وقد كادوا أن يقبضوا على ويتهموننى بقتله ، لولا أن كتب الله لى النجاة من ايديهم بعد أن اعتدوا على بالضرب وسلبونى ثيابى وكل ما كان معى »

فبغتت كما بغت جميع الحاضرين ، وادركوا سبب مجيئه ألى المنزل عارى الراس حافيا ليس عليه الا الملابس الداخلية . ثم سألته زوجته : « ألم تعرف من ذلك القتيل ؟ »

قال : « عرفته . هو بواب الحارة المسكين ! »

فقالت : « تبا لهم من ظلمة اشرار !.. ذهب المسكين ضحية الاخلاص والوفاء والدفاع عن الحق ، فقد سمعته يستمهلهم حتى تحضر ، وهم يهمون باخذ حسن » . وعادت الى البكاء قائلة : « ترى اين انت الآن يا ولدى ؟ وهل يقدر لنا أن نراك بعد الآن ؟ »

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عن البكاء معها ، واخذ يندب حظه وولده قائلا : « آه يا حسن ! .. كيف نتركك تذهب الى الموت وليس لنا فى الحياة سواك ؟ »

فقالت له زوجته : « الا نشكو امرنا ونتظلم عسى أن ترق لنا قلوبهم او يطلقوا سراح ولدنا باية وسيلة ؟ »

فهز راسه اسفا وحزنا وهو يتنهد ثم قال : « ولمن نشتكى يا سالمة ؟. هل نشتكى الى المماليك وهم انفسهم الذين ظلمونا .. ليس امامنا الا الله وحده نشكو اليه بثنا وحزننا ، وهو القادر على ان يكشف عنا هذا البلاء الذى غطى كل ما سبقه من ويلات ونكبات »

فقالت سالمة : « أليس من وسيلة الى مقابلة الباشا واستعطافه ، لكى يوصى على بك برد ولدنا الينا لانه لا يستطيع الحرب ؟ »

فقال : « ان الباشا نفسه يشكو مثلنا ظلم المماليك عليهم لعنة

الله والملائكة والناس أجمعين . لا . . لا . ليس لنا الا أن نشكو الى الله »

ثم رفع يديه ورأسه الى السماء واخذ يتضرع الى الله قائلا :
« يا رافع السموات وباسط الأرض ، يا عالما بكل شيء ، وقادرا على كـل شيء ، نسألك بحق ذلنـا وانكسارنا ، أن تلطف بنـا فيما جرت به المقادير ، وتنتقم لنَا من الظلمة الغاشمين بجاه خاتم الانبياء والمرسلين » .

□

لبث السيد عبد الرحمن وسالمة زوجته يبكيان ولدهما حسنا ، ويشاركهما في البكاء كل من في منزلهما من الخدم والجوارى حتى مضى الليل كله في ذلك دون نوم ولا طعام

على ان السيد عبد الرحمن ما كاد يسمع اذان الفجر ، حتى نهض فتوضا وادى ما عليه لله من فرائض للصلاة . وكان قد فاتته صلاة المغرب والعشاء بسبب ما تراكم عليه من الأحداث والأحزان

ولما فرغ من الصـلاة والدعاء الى الله ان يكتب السلامة لولَده العزيز الوحيد ، جالت بخاطره فكرة راى فى تحقيقها ما قد يحقق رجاءه . فنهض ومضى الى زوجته فى غرفتها حيث كانت تواصل البكاء وقد خارت قواها واحمرت عيناها ، وقال لها : « قد رايت أن أمضى الى السيد المحروقى فى داره لأخاطبه فى أمرنا ، وهـو من السادة الأشراف المقربين الى على بك ، وما أظن انه يرفض التوسط لنا عنده ليأمر باطلاق سراح ولدنا »

فقالت : « حسنا تفعل ، وما اظن ان على بك يرد مثل هذا الطلب لصديقه الشريف الـكبير . فهيا عجل بتنفيذ هذه الفكرة ، وعلى الله التوفيق »

ثم رفعت يديها الى السماء والدموع فى عينيها ورفعت صوتها المتهـدج قائلة : « يا رب انت اعلم بحالنـا فارحمنا يا ارحم الراحمين »

وبعد قليل ، كان السيد عبد الرحمن قد استعد للخروج ، فارتدى جبة وقباء (قفطانا) ووضع على رأسه العمامة ، واحتذى نعلا جديدة بدل التى سلبه اللصوص اياها مع بقية ملابسه ودراهمه بالأمس . ثم هم بالنزول من دار الحريم فى الطابق العلوى من المنزل ، داعيا الله بقلبه ولسانه ان يوفق فى مهمته

وفيما هو كذلك اذا به يسمع ضجة كبيرة امام المنزل ، ثم طرقات عنيفة على الباب ، فتسارعت دقات قلبه ووقف شعر راسه وجحظت عيناه دهشة ورعبا ، ثم خطر بباله أن الطارق ربما كان ولده أو رسوله أو بشيرا بقدومه ، فعاودته همته وشهامته ، وخف الى نافذة قريبة منه فاطل منها على باب المنزل . وشد ما كانت خيبة آماله اذ راى جماعة من العساكر والانكشاريين وبينهم رجال موثقون بالقيود والأغلال ، فعاوده رعبه وفزعه وتخاذلت ساقاه فلم يعد يستطيع الوقوف فضلا عن المشى ، فارتمى على مقعد بجانب النافذة حيث اعتمد راسه بيديه وغرق فى لجة من الوساوس والهموم

وكان من فى المنزل قد رأوا ما رآه فاخذهم ما أخذه من الخوف وتوقع الشر واجتمعوا حوله خافقة قلوبهم معقودة السنتهم حتى سالمة زوجته اذ تحول صراخها الى انين خافت مكبوت

ومضت لحظة رهيبة علت بعدها ضجة المزدحمين بباب المنزل ، واشتدت الطرقات عليه ، وصحب ذلك صوت معالجة فتح الباب بالعنف ، فرفع السيد عبد الرحمن راسه واشار الى بعض الخدم الملتفين حوله أن ينزلوا لفتح الباب وادخال العساكر القادمين قاعة الاستقبال (المنظرة) فى الطابق الارضى لتقديم القهوة لهم وسؤالهم عما يريدون . ففعلوا ما أشار به

وبعد قليل صعد اليه أحد أولئك الخدم وقد ازداد وجهه صفرة ، وأنباه بلسان متلعثم أن القادمين هم رجال الشرطة المنوط بهم حفظ الأمن والنظام بالمنطقة ، وانهم قبضوا على كثير من سكان الحارة وغيرهم للتحقيق معهم فى امر مصرع بواب الحارة ، ويريدون

ان يخـرج معهم لســماع أقواله امــام الوالى (رئيس الشرطة) فى القلعة

ولا تسل عن فزع السيد عبد الرحمن بعد أن سمع هذا الـكلام ، على أنه خشى أن يكون فى تأخره عن النزول اليهم والخروج معهم الى القلعة مالا تحمد عقباه ، فتحامل على نفسه وودع اهل منزله ثم تزود بقدر كبير من الدراهم لعله يحتاج اليها فى الطريق . وهبط من دار الحريم الى المنظرة فحيي العساكر فى أدب واحترام وقدم لهم نفسه فسرعان ما أوثقوه ثم خرجوا به مع المقبوض عليهم الآخرين آخذين طريقهم الى القلعة

□

وصل السيد عبد الرحمن الى القلعة وقد أنهكه التعب والحزن وما قاساه من اهانات العساكر فى الطريق . وهناك اوقفوه مـع بقية المتهمين أمام رئيس الشرطة ، فأخذ يهددهم بالقتل ويسمعهم افحش السباب ، وكلما تراموا على قدميه مؤكدين براءتهم مما اتهموا به ، لج فى طغيانه وجبروته وإصم اذنيه عن سـماع توسلاتهم

واخيرا ، أمر العساكر بأن يزجوا بهم فى السجن ريثما ينظر فى أمرهم ، فهم هؤلاء بتنفيذ الامر ، وهمس جاويش منهم قائلا للمتهمين الموثقين : « ان جناب الوالى (رئيس الشرطة) لا يبالى تظلمكم ، ولا تهمه دعواتكم له بطول العمر والسلامة ، ولـكن اذا دفع كل منكم نصف كيس مساهمة فى دية القتيل ، فقد يقبل اعادة النظر فى أمركم ويعفو عنكم ! »

فاستبشر السيد عبد الرحمن وقال فى نفسه : « هذا طلب هين يسير » . ثم دفع للجاويش نصف كيس للوالى ، ونصف كيس له . واقتدى به من استطاع الدفع من المتهمين ، فأخذ الجاويش ما دفعوه من المال وعاد الى الوالى فتحدث معه هنيهة ، ثم جاءهم يقول : « قد عفا جناب الوالى عنكم » . فصاحوا جميعا شاكرين داعين

وحسب المتهمون ، وفى مقدمتهم السيد عبد الرحمن ، ان المسألة انتهت عند هذا الحد . ولكن العساكر ما لبثوا ان ساقوهم فى قيودهم واغلالهم الى مقر الأغا (محافظ المدينة) فى القلعة بحجة اتمام التحقيق !

وكان هذا الأغا انكشاريا طويل القامة هائل الحجم ، على راسه عمامة بيضاء هرمية الشكل ، وعلى كتفيه العريضتين فرو سمور ، وهو كث اللحية عريضها ، تدل نظراته الشزراء على انه فظ غليظ القلب . فلما دخلوا عليه امر بجلدهم قبل ان يسمع اى شيء عن امرهم . فأخذوا يتضرعون اليه ويستعطفونه مترامين على قدميه يحاولون تقبيلهما ، فركلهم وقال لهم محتدا : « اما ان تذكروا من القاتل واما كنتم القاتلين وحق عليكم اشد العقاب ! »

وبعد اللتيا والتى ، كتب الله لهم الخلاص من شر الأغا ، بعد ان جمعوا من بينهم ما تيسر من المال ودفعوه له ولمعاونيه ، فأمر بحل وثاقهم واطلاق سراحهم ، فخرجوا من عنده وهم لا يكادون يصدقون انهم نجوا

ولاح للسيد عبد الرحمن ان ينتهز فرصة وجوده فى القلعة فيذهب لمقابلة الباشا فى مقره هناك ، ويقص عليه حكايته ، فان لم يجد فائدة منه ذهب الى السيد المحروقى كما قرر من قبل . ثم تردد فى تنفيذ هذه الفكرة لانه لا يعرف اللغة التركية ، والباشا لا يتكلم الا بها ولا يعرف العربية. لكنه تذكر ان الباشا لا بد ان يكون لديه مترجم خاص أو اكثر ، فزايله تردده ومشى فى طرقات القلعة حتى وصل الى قصر الباشا فهاله عظم بابه ، وكثرة الحجاب الاتراك الواقفين به وعلى كل منهم سراويل قصيرة ، وقد تقلد بندقية

ودنا من احد أولئك الحجاب واستأذنه فى الدخول ، فسأله الحاجب : « ما حاجتك ؟ » . قال : « لى قضية مهمة اريد ان اعرضها على افندينا الباشا »

فقال الحاجب : « انتظر قليلا حتى تعرض امرك على جناب الكتخدا نائب الباشا »

ثم دخل الحاجب وغاب دقائق عاد بعدها وقال له : « قد اذن جناب الكتخدا بدخولك عليه فتعال نفتشك أولا لئــلا يكون معك شيء من السلاح » . وبعد أن فتشه وتحقق أنه لا يحمل ســلاحا ، قاده إلى الداخل حيث مضى به الى غرفة الكتخدا ، وازاح له الستارة الموضوعة على بابها فدخل وقلبه يخفق هيبة ، فوجد الكتخدا جالسا فى صدر القاعة بالملابس التركية ، فحياه باحترام . واشار اليه الكتخــدا أن يجلس على مقعد بالقرب منه وكلم الحاجب بالتركية آمرا اياه بدعوة الترجمان اليه . فجلس السيد عبد الرحمن مطرقا ويداه على ركبتيه . وبعد هنيهة جاء الترجمان وسأله بالعربية عما يريد ، فاخــذ يقص عليه حكايتــه من أولها الى آخرها . وهــذا يترجمها فقــرة فقرة للكتخدا ، فيهز راسه مبديا دهشته واسفه

والتفت الكتخدا أخيرا الى السيد عبد الرحمن وفى نظراته ما يدل على الرثاء له والرافة به ، ثم قال له بوساطة الترجمان : « قد فهمت قضيتك وادركت انك على حق فيما شكوته من الظــلم . وسأذهب بنفسى لرفع هذا الظلم عنك ورد ولدك اليك »

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عن الوقوف ودموع الاســتبشار بقرب الفرج تطفر من عينيه ، ثم هم بتقبيل يد الكتخدا ، فمنعه من ذلك ، واشار اليه أن يجلس كما كان . فعاد الى مقعده ولسانه ما زال يلهج بالشكر والدعاء

واخذ الكتخدا يتبسط فى الحديث بوساطة الترجمان مع الســيد عبد الرحمن ، الى أن استطلع رايه فيما يقــال من اعتزام على بك الاستقلال بحكم مصر واخراجها من يد الدولة العلية ، فأجاب بقوله : « قد سمعت يا سيدى شيئا عن ذلك . وأكبر الظن أن الغرض الاول لعلى بك من ارسال الحملة الى الحجاز ليس مساعدة شريف مكة ضد منافسه فقط،بل غرضه اخراج تلك البلاد من يد دولة الخلافة ايضا . ولهذا اكثر من الجنــود فى تلك الحمــلة حتى لم يبق أحد من الشبان المقيمين بمصر الا الحقه بها ، لا فرق فى ذلك بين المصريين منهم والمغاربة والشـــوام والاتراك والأروام . وقد شاءت المقــادير أن يكون ولدى الوحيد بين أولئك المجندين،مع انه من المتخرجين فى الأزهر ومدرسة

السلطان حسن ، ولم يكتف بما حصله فيهما من علوم الدين واللغة وغيرهما فالتحق بمدرسة البيمارستان المنصورى ليدرس الطب على احد الأطباء المغاربة فيه »

فقال الكتخدا : « ان هؤلاء المماليك قد امعنوا فى طغيانهم وتمردهم على مولانا السلطان ، ولا شك فى أن جلالته لا يقر هذه الأعمال ، لما عرف عنه من الميل الى العدل والحلم والبر برعاياه . ولا بد من وضع حد لهذه المظالم . فطب نفسا وقر عينا ، وثق ان حاجتك مقضية ، ولا يلبث ولدك ان يعود اليك سالما بأذن الله »

فوقف السيد عبد الرحمن ، وحاول مرة اخرى تقبيل يد الكتخدا ولكن هذا منعه ايضا ، ثم ودعه مطيبا خاطره مكررا وعده بالسعى العاجل بنفسه فى سبيل رد ولده اليه . فخرج من عنده وقد انساه ذلك كل ما عاناه من نصب وعذاب

□

ما كاد السيد عبدالرحمن يهم بالخروج من القلعة،حتى بصر بموكب قادم الى قصر الباشا ، يتقدمه شيخ ذو لحية طويلة راكبا على حمار ، وعلى راسه عمامة غريبة الشكل . فسأل بعض الجنود عمن يكون هذا الشيخ فقال له أحدهم : « ألا تعرفه ؟ . . انه ابو طبق لعنه الله ولعن من أرسلوه ! »

فتذكر ما كان يسمعه عن الأوضه باشى الذى تعود المماليك ان يرسلوه الى الباشا الذى يقررون عزله ، لتبليغه هذا القرار . وكان العامة يسمونه ابا طبق ، نظرا الى ان عمامته متخذة من لبادة سوداء تنتهى عند حافتها بدائرة واسعة مصنوعة من نسيج من الأسلاك الرفيعة ، تجعلها اشبه بالقبعات الأفرنجية الواسعة الحوافى . ولم يكن يذهب لأداء مهمته هذه الا راكبا على حمار ، ومن خلفه بعض أمراء المماليك

فقلق السيد عبد الرحمن ، وأوجس فى نفسه خيفة من أن يكون الرجل قادما لاعلان الباشا بعزله ، فتحبط مساعيه لاطلاق سراح

ولده . وبقى واقفا حتى مر عليه الموكب فاختلط به ، وعاد معه الى قصر الباشا ليرى ما يكون

فلما وصل الأوضه باشى او ابو طبق الى باب القصر ، ترجل عن حماره ، وهم بالدخول فتنحى كل من كانوا خلفه فى الموكب ولم يدخل معه الا بعض امراء المماليك . فدخل السيد عبد الرحمن فى أثرهم ، ولم يمنعه الحراس لانهم راوه فى القصر منذ قليل

ووقف الأوضه باشى امام قاعة كبيرة ادرك السيد عبد الرحمن من ضخامة بابها وفخامة الستارة المرفوعة عليه انهاغرفة الباشا ، فأصلح الأوضه باشى وضع عمامته الغريبة وجلبابه الفضفاض المزرر من الامام ثم دخل دون استئذان وخلفه اتباعه ، فدخل معهم وادار عينيه فى القاعة فاذا الباشا قد جلس مطرقا فى صدرها على سجادة ثمينة وعلى راسه عمامة فوق القاووق ، وعلى جبته فرو سمور ، وبيده مذبة من ليف النخل . فلما شعر بدخولهم رفع وجهه وبدت الدهشة فى نظراته وبقى ساكتا . بينما اقترب منه الأوضه باشى ، ثم هم بيديه فقبلهما،ثم تأخر قليلا وثنى طرف السجادة التى يجلس الباشا عليها ، ورفع صوته وهو ينظر اليه قائلا : « انزل يا باشا »

ثم مد يده فأخرج من ثوبه كتابا اخذ يقرؤه ، فاذا هو قرار اصدره المماليك بعزل الباشا، وبأن يكون قصره بما فيه وكل حراسه تحت امرتهم منذ ذلك الحين !

ولم ينبس الباشا ببنت شفة ، ولكن وجهه بدا شديد الصفرة كوجوه الأموات ، وكادت المذبة تسقط من يده لما اعتراه على اثر سماعه نبأ عزله من الرعدة والارتجاف

وانصرف الأوضه باشى على أثر ذلك مزهوا بأداء مهمته ، فركب حماره وانطلق بموكبه عائدا من حيث اتى . ولم يتمالك السيد عبد الرحمن عن البكاء اسفا على حبوط مساعيه بسبب ذلك العزل المفاجىء ، ثم تجلد وغادر القلعة آخذا طريقه الى دار السيد المحروقى عسى القدر الذى كتب له الفشل هنا ، يكتب له التوفيق هناك

السيد المحروقى

وصل السيد عبد الرحمن الى دار السيد المحروقى وهو يدعو الله أن يأتيه بالفرج على يديه ، فوجد باب الدار مغلقا ، والسكون يخيم عليها على غير العادة . وكان يعهدها حافلة بالقصاد . فتشاءم وبحث عن البواب فيما جاور الدار فلم يجد له أثرا ، فعاد الى الباب وطرقه هائبا ، فسمع صوتا من الداخل يسأل : « من الطارق ؟ » . فتشجع ورد على صاحب الصوت وهولايراه ذاكرا اسمه وانهجاء لمقابلةالسيد فى شأن خاص

وسكت مرهفا أذنيه ليسمع الجواب ، فلم يسمع شيئا . ولما مل الانتظارهم باعادة طرق الباب لكنه سمعوقع اقدام قادمة من الداخل. ثم فتح الباب وأطل منه احد الخدم داعيا اياه الى الدخول ، فلما دخل أغلق الخادم الباب كما كان ، ثم تقدمه الى حجرة الجلوس . وكان بابها مفتوحا على مصراعيه ، فلمح السيد المحروقى جالسا على وسادة فى صدر الغرفة وفى يده كتاب يقرأ فيه ، والدخان يتصاعد من غليونه ، فأسرع السيد عبد الرحمن فى مشيته حتى بلغ باب الغرفة فخلع نعليه وتركهما مع عصاه خارج الباب ، ثم دخل محييا فى أدب واحترام وقبل يد السيد ، فهم هذا بالوقوف لاستقباله مرحبا به . فأمسكه السيد عبد الرحمن ليحول دون ذلك وهو يقول : « أستغفر الله .. استغفر الله »

وأشار اليه السيد المحروقى بالجلوس على وسادة بجانبه . وأمر له بالقهوة والغليون ، مكررا عبارات الترحيب به ، وكان قد عرفه من قبل ، وكثيرا ما التقيا فى الأزهر وغيره من المساجد الجامعة . ثم بدأ الحديث معتذرا من اغلاق باب الدار قائلا : « ان الأحوال الحاضرة

اضطرتنا الي اغلاق الباب، فالجنود كما تعلم يتأهبون للسفر الى الحرب فى الحجاز ، ومن عادتهم أن يجوسوا خـــلال الديار للنهب والســلب والتحرش بالسابلة كلما هموا بالخروج للقتال . ولسوف يزدادون عتوا وفسادا فى هذه المرة لان الديوان قرر اليوم عزل الباشا ، فمتى علموا بذلك أمعنوا فى تمردهم واعتداءاتهم على الســابلة والمتــاجر والبيوت »

فقال : « قد شهدت بعينى عزل الباشا منذ قليل ، وقد جئتكم من القلعة عقب انصراف أبى طبق منها » . وروى له حـكايته من اولهـا الى آخرها الى أن قال : « ولم يبق لى بعد الله ملجأ ســواكم ، وانى لأرجو أن ينفعنا الله ببركتكم فأنتم سلالة الشرف والمجد ، وقاصدكم لا يخيب بعون الله »

ولم يتمالك السيد عبد الرحمن عواطفه التى هاجهــا تذكر ولده الوحيد ، وما هو فيه من خطر ، فأخذت دموعه تجرى على خديه ولم يعد يستطيع الكلام . فتأثر السيد المحروقى ، ووضع كتاب الحديث الذى كان يطالع فيه جانبا ، ثم التفت اليه وقال : « صــبرا يا اخى ، فالعقبى للصــابرين ، ولاتحســبن الله غافلا عن ظلم هــؤلاء القــوم واستبدادهم ، وكأنى به جل شأنه قد سلطهم علينا لنثوب اليه ونعلم الا ملجأ الا اليه »

ثم تنهد وهز رأسه أسفا وواصل حديثه فقال : « ومن عجب أنهم يدعون الاسلام ، والاسلام برىء منهم ومن أعمالهم التى لم يأت مثلها الفراعنة والمجوس . وقد طالما نصحنا لهم ورجــونا اصلاحهم فمــا ازدادوا الا طغيانا وفسادا . وبلغ من قحتهم وكفرانهم بأنعم الله أن صرحوا بالخــروج من طاعة مولانا السلطــان منتهزين لذلك فرصــة اشتغاله بمحــاربة روسيا . وقد رأيت اليــوم كيف عزلوا الباشا ، ليخلو لهم الجو ، وليفســدوا فى الأرض ما شاء لهم الظلم . وصحيح ان الباشوات الأتراك قصرت ايديهم فى الزمن الأخير وصارت الكلمة العليا فى البلاد لهؤلاء المماليك ، على أننا مع ذلك لم نكن نحرم من مســاعدة على يد الباشا »

فقال السيد عبد الرحمن : « هل ترى انهم يستطيعون تحقيق مطامعهم واخراج مصر من حوزة الخلافة ؟ وهل لا يخشون قوة الدولة وشدة بطشها ؟ »

قال : « انهم لجهلهم احوال الدنيا يظنون انها فى متناول أيديهم ، وانهم سينالون مرامهم من أيسر سبيل . ومما جرأ على بك على هذا فيما علمت ان كاتبه (المعلم رزق) زعم له ان علم التنجيم دله على نجاح مساعيه فى سبيل الاستقلال بمصر . ومنذ ذلك الحين وعلى بك لا يعمل عملا الا بمشورة ذلك الكاتب القبطى ، ويسارع الى قبول كل وساطة له فى شأنهم »

فهز السيد عبد الرحمن رأسه اسفا وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !. أبعد أن كان خلفاء المسلمين وولاتهم لا يعتمدون فى مشوراتهم الا على العلماء والفقهاء يأتى على بك فى آخر الزمان فيقلب الأوضاع ويتخذ النصارى أولياء ومستشارين من دون المؤمنين ؟ ! »

فقال السيد المحروقى : « وهناك شاب نصرانى آخر من اهل البندقية ، اسمه (روزتى) قربه على بك اليه وجعله من خاصة مستشاريه ، ولا سيما بعد ان نجح روزتى هذا فى عقد معاهدة بين اهل بلده وبين على بك تقضى بأن يكونوا حلفاء وانصارا له يمدونه بالعساكر وغيرهم عند الحاجة »

قال : « سمعت أن معاهدة التحالف التى عقدها على بك كانت مع المسكوف »

فقال : « هذه معاهدة اخرى ، عقدت بين على بك وبين الكونت الكسيس اورلوف اميرال الأسطول الروسى فى البحر الابيض المتوسط . وقد تمت بوساطة رجل ارمنى من مستشارى على بك اسمه يعقوب . وقد كان هذا وذاك مما اغرى على بك بالمضى فى خطة الخروج على الخلافة ومحاولة توسيع نطاق سلطانه والاستقلال بمصر . وها انت ترى انه بذلك قد خرب البلاد ، وسلب أهلها املاكهم وارزاقهم »

فعاد السيد عبد الرحمن الى تذكر مصائبه وافدحها اخذ ولده الوحيد الى حرب لا غاية لها الا مناواة دولة الخلافة وتمكين السلطة

للمماليك الظلمة المفسدين ، فتنهد وكفكف دمعة انحدرت على خده وقال : « الا يرى السيد ان هناك املا فى اطلاق سراح ولدى المظلوم . انه وحيد ابويه كما تعلم ، ولم يجاوز العشرين بعد ، ولا معرفة له بالحرب والقتال ، فهو قد أمضى طول عمره حتى الآن فى الدرس والتحصيل ونسخ الكتبالقيمة النادرة من المكتبات . واعتقد انه ان مضى الى الحرب فهو هالك لا محالة . كما انى وامه لن ننتفع بحياتنا بعده ، اذ هو كل آمالنا فى الحياة » . قال ذلك وعاد الى البكاء

فاخذ السيد المحروقى يخفف عنه وقال له : « ان على بك كما تعلم رجل غضوب ، اشتهر بانه اشد بطشا من اسلافه جميعا ، وكنا نحسب فى اول عهده انه اقرب الى العدل والرفق بالرعية ، مما كان يصرح به حينذاك ، لكنه ما لبث قليلا حتى عاد الى ما طبع عليه هو واسلافه من الجور والارهاب واكل اموال الناس بغير الحق ، وقتلهم بالجملة دون اى ذنب اقترفوه . حتى صارت رؤيته وحدها كافية لادخال الرعب والفزع الى قلوبهم . ولعلك سمعت بالمساكين الذين ما توا فى مجلسه منذ حين ، حين راوه لأول مرة فأرعبتهم هيئته التى تظهره اقرب الى الأسد منه الى الانسان ! »

قال : « نعم سمعت بذلك ، غير انى اعلم كما يعلم غيرى انه يجل منزلتك ويحترم كلمتك . وارجو ان تزول شدتى بفضل وساطتك فى قضيتى عنده ان شاء الله »

فقال السيد المحروقى وهو يمشط لحيته بيده : «حقق الله رجاءك، وساسارع الى مقابلته الآن لأخاطبه فى هذا الشأن ، وعسى الله ان يرق قلبه فيكرم شيبتى هذه ولا يردنى خائبا »

□

صفق السيد المحروقى بيده ، فجاء احد خدم الدار ووقف متأدبا فقال له : « ساخرج بعد ساعة فى مهمة الى القلعة ، فأبلغ السائس ليسرج البغلة » . فحنى الخادم رأسه سمعا وطاعة وانصرف لتنفيذ ذلك الأمر

وبينما السيد عبد الرحمن يهم بالنهوض مستأذنا فى الانصراف وهو

يكرر الشكر للسيد المحروقى على كرم وفادته ومبادرته باجابة ملتمسه،جاء الى القاعة خادم آخر وقال : «ان سراج على بك (سائس جواده) بالباب ». فقال السيد : « دعه يدخل ». ثم التفت الى السيد عبد الرحمن ونظر اليه كأنه يستبقيه حتى يعلم فيم أرسل على بك يدعوه اليه . فبقى جالسا حتى عاد الخادم ومعه السراج ، ثم وقف هذا متأدبا بباب القاعة وقال : « ان مولانا على بك يدعو سيادتكم الى منزله الليلة للمفاوضة فى بعض الشئون »

فسأله السيد المحروقى : « وأين هو الآن ؟ »

قال:«هو فى القلعة لاستعراض الجنود المسافرين الليلة الى الحجاز. وقد تركته جالسا فى قصر الباشا هناك بعد ان عزل هذا وتم الاستيلاء على القلعة وما فيها »

فقال السيد المحروقى : « أبلغ تحياتى الى البك ، وسأكون فى شرف مقابلته بعد ساعة ان شاء الله »

فحنى السراج رأسه اجلالا ، وتقهقر خطوات ثم خرج من الدار وركب جواده المنتظر بالباب ومضى عائدا الى القلعة

وعلى اثر ذلك نادى السيدالمحروقى خادمه الاول ، وأمره بأحضار ملابس الخروج الرسمية . فأحضرها له بعد قليل . وهى مؤلفة من فروة سمور تلف حول العنق ويرسل طرفاها على الكتفين . وعمامة كبيرة ملفوفة حول قاووق طويل تبدو قمته ظاهرة فى أعلاها

وكان السائس قد أسرج البغلة ووقف بها عند الباب استعدادا لخروج سيده عليها ، فهم السيد عبد الرحمن بيد السيد المحروقى وقبلها ، وسار معه حتى ركب البغلة ومضت به فى الطريق الى القلعة . فعاد هو الى منزله ليبشر من فيه بما أشرق فى قلبه من الأمل فى انقاذولده الوحيد العزيز

وفى طريقه الى المنزل،سمع المنادين يصيحون فى الشوارع والحارات قائلين : « ليكن معلوما لديكم يا أهل مصر أن الجنود سيخرجون اليوم من القلعة بأمر مولانا على بك ذاهبين الى الجهاد،فادعوا الله أن ينصرهم ويعيدهم الى البلاد سالمين غانمين »

وكان الناس يسارعون الى اغلاق دورهم ومتاجرهم . توقيا لما تعودوه فى مثل هذه الحال من قيام الجنود بالسلب والنهب والاعتداء على الآمنين والآمنات دون خوف ولا حياء

فلما وصل الى المنزل . كانت زوجته قد سمعت نداء المنادين ، فأمرت الخدم باحكام اغلاق الباب مخافة اعتداء الجنود . ثم استأنفت العويل والنحيب جزعا على ولدها الذاهب معهم الى الحرب

وما كاد الخدم يسمعون طرقه الباب بشدة حتى اجفلوا ، وساد الذعر كل من فى البيت حتى خفتت أصوات زوجته والجوارى . فلم يجد بدا من رفع صوته منادیا الخدم بأسمائهم ليعلموا انه هو الطارق، فعرفوا صوته وسارعوا الى فتح الباب وقد زايلهم الذعر والرعب . وبادرته زوجته سائلة عما تم فى أمر مساعيه ، فقص عليها ما كان من ركوب السيد المحروقى لمقابلة على بك والتوسط لديه فى شأن تسريح حسن من الجندية ؛ وكتم عنها نبأ عزل الباشا . وما سمعه من السيد المحروقى عن شدة سطوة على بك وغلظته حتى لا يقطع خيط املها ، واخذ يهون عليها . ويتظاهر بالاطمئنان الى انفراج ازمتهما ، حتى عاودها بعض الاطمئنان وسكتت عن الصراخ والعويل . لكن قلبها لم يطاوعها على الصبر فقالت له : « ان قلبى غير مطمئن ، فلم يبق على سفر الجنود الا قليل . وارى ان تمضى انت لنلحق بالسيد المحروقى، وتبقى معه حتى يخاطب على بك فى امر ولدنا،واذا اقتضى الافراج عنه التضحية بكل ممتلكاتنا وأموالنا فيجب أن نضحى بها دون أى تفكير »

وهم بأن يصارحها بخشيته اعتداء الجند عليه فى الطريق ، لأن على بك موجود فى القلعة بعد ان عزل الباشا وحل محله فيها . لكنه آثر ان يكتم عنها ذلك ، ونهض متحاملا على نفسه ، وغادر الدار مسرعا ، بعد أن أوصى الخدم بأن يعودوا الى احكام اغلاق الباب ، والتيقظ لكل طارىء حماية لهم ولمن فيه من أى عدوان

فى مجلس على بك الكبير

كان اهل القاهرة قد التجاوا جميعا الى منازلهم واحكموا اغلاق ابوابها ، بعد ان اغلقوا متاجرهم وتركوا اعمالهم ، ريثما يتم سفر الجنود

ولم يعجب السيد عبد الرحمن لخلو الطريق من المارة حتى الجوذية والمكاريين ، لعلمه بخشية الناس اعتداء الجنود . وما تعوده هؤلاء من اغتصاب كل دابة يصادفونها فى طريقهم بدعوى حاجتهم اليها فى الجهاد . فمضى فى طريقه الى القلعة وقلبه يخفق بشدة مخافة أن يلقاه بعض الجنود ويسلبونه ثيابه وما معه من المال . وما زال سائرا وهذا حاله حتى بلغ القلعة ، وهم بدخولها من (باب العزب) فاذا به يلمح شيخا يدخل منه راكبا جوادا ، وتأمله جيدا فاذا هو السيد المحروقى نفسه ، فعجب لتاخره عن الوصول الى القلعة حتى تلك الساعة ، ولم يدرك سر ركوبه جوادا بدلا من البغلة التى رآه ممتطيا اياها ، ولا سيما أن المماليك لم يكونوا يسمحون لغيرهم بركوب الجياد

فأسرع فى مشيته حتى اقترب منه وناداه فالتفت اليه وعرفه ، فأوقف جواده حتى لحق به وساله عما اتى به ، فقص عليه ما حدث منذ فارقه . واخذ ينظر الى الجواد كأنه يستفهم عما دعا السيد الى ركوبه بدلا من بغلته ، فأدرك هذا غرضه وقال له : « ان بعض الجنود الاجانب قبحهم الله ، اعترضوا طريقى، وابوا الا اخذ البغلة بما عليها، ولم انج منهم الا بمعجزة ، وبعد أن ابلغ الخادم الامر الى واحد من المماليك اتفق مروره فى ذلك الوقت .. واخبره بذهابى الى القلعة لمقابلة على بك بدعوة منه ، فجاء المملوك وانتهر من وجدهم من الجنود وهددهم بالقتل ففروا هاربين ، وكان زملاؤهم قد فروا قبلهم بالبغلة

وما عليها ، فجاءني المملوك بهذا الجواد وهو من جياد على بك فركبته وواصلت المضى في طريقي حتى جئت كما ترى »

فهنأه السيد عبد الرحمن بالسلامة . واعتذر اليه مما لحق به من الاهانة بسبب خروجه في منذ ذلك اليوم لانجاز المهمة الخاصة به،فقال السيد المحروقي : « هكذا قدر الله . ولا راد لما قدره . ولا ذنب لك في الأمر . فقد كان على أن احضر الى هنا تلبية لدعوة على بك . وعلى كل حال نحمد الله على اللطف فيما جرت به المقادير . ولعل الخير في هذا التأخير »

ثم اشار اليه أن يتبعه عسى ان يستطيع الدخول معه الى مجلس على بك . ويعرض عليه بنفسه مظلمته ، وحينئذ يتدخل هو في الأمر . ويلتمس انصافه . فوافق على ذلك شاكرا

ولما وصلا الى الساحة الداخلية في القلعة ، وجداها قد امتلأت بجماعات من الجند،من مختلف الاجناس والأزياء .وقد علت ضوضاؤهم وهم يتأهبون للخروج . فأخذ السيد عبد الرحمن يتفقدهم لعله يرى ولده بينهم . ولكنه لم يستطع الاهتداء اليه بين جموعهم المختلطة بين مماليك واتراك ومغاربة ومصريين وأروام وشوام وغيرهم . ولكل جماعة منهم علم خاص . وقائد من جنسهم . وابرزهم المغاربة بطراطيرهم المصنوعة من جلد السمور . وعباءاتهم المزركشة بالذهب . والانكشارية بطراطيرهم المدلاة اطرافها على ظهورهم . وفي مقدمتها فوق الجبهة ريشة تنتهي عند أعلاها بشعبتين . وقد تمنطق كل منهم فوق قبائه ، قفطانه ، بحزام عريض . والمماليك في زيهم المعروف ، المؤلف من القباء المزركش . والمنطقة العريضة يتدلى السيف من جانبها الأيمن . ويبدو الخنجر تحتها من أمام ، والعمامة الأنيقة ملفوفة على قاووق طويل

□

ما كاد حراس القصر الجدد يلمحون السيد المحروقي قادما على جواده حتى خفوا الى استقباله بتحيات الاجلال والتعظيم ، لعلمهم بمكانته الممتازة عند مولاهم على بك،فضلا عما عرفوا من علمه وفضله

وتقبواه . وبعد ان عاونه بعضهم على الترجل ، ساروا بين يديه حتي اجتاز الباب وخلفه السيد عبد الرحمن وقد حسبوه تابعا للسيد المحروقي فتركوه يدخل معه

ولما وصلا الى باب القاعة الكبرى حيث مجلس على بك ،ادرك السيد عبد الرحمن انها القاعة التى قابل فيها الباشا فى الصباح ، فقال فى نفسه : « سبحان محول الأحوال » . ثم رأى الستر المسدل على الباب قد رفعه احد الحاجبين الواقفين هناك فدخل السيد المحروقى لايلوى على شيء وعاد الحاجب فسدل الستر كما كان . فهاب الدخول خيفة ان يمنعه الحاجب ، وخشي فى الوقت نفسه ان يطيل الوقوف بالباب فيدعو هذا الى الريبة فى امره وربما اوذى بسبب ذلك ، فكر راجعا حتى بلغ الباب الاول ، ووقف مع خادم السيد المحروقى المنتظر بالجواد هناك ، وتشاغل بالحديث معه

وعلم الخادم من حديثه انه راغب فى حضور مجلس على بك ، وان السيد المحروقى نفسه هو الذى اشار عليه بذلك ، فقال له : « ان هذا امر ما أسهله يا سيدى ، وما عليك الا ان ترضى الحاجبين ببضعة أرباع من النقود ، فتجد الستر مرفوعا وتدخل بكل اطمئنان »

وسرعان ما وافق السيد عبد الرحمن على هذه الفكرة فعاد الى باب القاعة ، حيث حيى الحاجبين ووضع فى يد كل منهما بعض المال ، فردا تحيته بأحسن منها ، ورفع احدهما الستر فدخل القاعة بسلام ، ثم تمهل فى سيره وهو يجيل عينيه فى المجلس ، فاذا به يرى على بك جالسا على متكأ مرتفع فى صدر القاعة ، مرتديا الجبة والعمامة ذات القاووق . وقد تمنطق بحزام عريض برز منه على الصدر خنجر مقبضه من الذهب المحلى بالجواهر . فهاب منظره لطول شاربيه ولحيته ، واتساع صدره وجبهته ، ولما يبدو فى نظراته من دلائل الجراة والذكاء وغلظة القلب . وكاد يهم بالرجوع لولا أن رآه مشغولا بالحديث مع الجالس عن يمينه وفى احدى يديه سبحة طويلة يقلب حباتها بأصابعه ، وفى يده الأخرى مذبة من شعر الخيل

وأدرك السيد عبد الرحمن أن هذا الجالس عن يمين على بك هو



على بك الكبير جالسا فى صدر القاعة والى يمينه صهره محمد بك أبو الذهب

صهره محمد بك أبو الذهب قائد الحملة الذاهبة الى الحجاز ، وكان فى مثل ملابسه . ثم تأمل بقية من فى المجلس ، فعرف أكثرهم ، وبينهم المعلم رزق كاتب على بك ومدير حسابات حكومته ، وكثير من أمراء المماليك ، والسادة الاشراف يتوسطهم السيد المحروقى . لكنه لم يعرف شابا رآه جالسا الى يسار على بك مرتديا ملابس فخمة غريبة تشبه ملابس الأفرنج ، ثم تذكر ما سمعه من السيد المحروقى عن المستشار الذى اتخذه على بك لنفسه من أهل البندقية واسمه روزيتى ، فقال فى نفسه : « لا بد ان يكون هو هذا الشاب »

وما تقدم السيدعبد الرحمن خطوات وهو يختلس النظر الى على بك حتى رفع هذا راسه فخيل اليه أنه ينظر اليه ولا يلبث ان يرتاب فى امره فيامر بقتله أو سجنه ، فارتجفت ركبتاه خوفا ، وحدثته نفسه مرة أخرى بالرجوع ، ثم تذكر ولده الوحيد والخطر الذى هو فيه ، فهانت عليه الحياة ، وسرعان ما خلع نعليه ، ثم نزع عمامته وامسكها بيده وتقدم مسرعا حتى جثا بين يدى على بك وصاح قائلا : « امان افندم أمان . مظلوم وحياة راس مولانا العادل على بك »

فبهت من فى المجلس ، والتفت اليه على بك متفرسا فى هيئته وسأله : « ماذا جاء بك الى هنا ؟ .. ومم تتظلم ؟ »

قال : « انى يا مولاى تاجر فى وكالة الليمون ، وليس لى غير ولد واحد تعبت فى تربيته حتى اتم تعليمه فى الأزهر ، والتحق بالبيمارستان المنصورى لدراسة الطب . لكنهم إخذوه وتركونى وأمه فى حياة خير منها الممات ! »

فقال له على بك : « من هم الذين أخذوه ؟ ولماذا ؟ »

فرفع السيد عبد الرحمن راسه وقال بصوت مختنق والدموع تنهمل من عينيه : « لا ادرى يا مولاى من اخذوه ، ولكنى علمت انهم ساقوه الى القلعة ليسير مع الجند الخارجين للحرب . وهو لا يقوى على القتال والأسفار »

فالتفت على بك الى من فى المجلس كانه يستطلع رايهم ، فسارع السيد المحروقى الى الكلام وقال : « انى اعرف هذا التاجر ، وهو

رجل طيب مخلص للحكومة ، وابنه من طلبة العلم النجباء »

فقال علي بك : « كيف أخذوه اذن وقد امرت بالا يجند احد من طلبة العلم ؟ »

فقال السيد المحروقي : « لعل امره التبس عليهم ، لانه بعد ان درس علوم الدين واللغة فى الأزهر التحق بالبيمارستان المنصوري لدراسة الطب كما ذكر أبوه الآن »

ففكر علي بك هنيهة ثم قال : « على اى حال لا وجه للتظلم من تجنيده ، فالجهاد فى سبيل الحرمين الشريفين واجب على جميع المسلمين،وهم اولى بهذا الأمر من الجنود الغرباء الذين تطوعوا للذهاب فى حملة الحجاز »

فقال السيد المحروقي : « لقد نطق مولانا بالصواب ، ولكنى ارجو ان تسع رحمته هذا التاجر المسكين ، اذ ليس له ولد آخر »

فبدا الغضب فى وجه علي بك وقال محتدا : « ما هذا ؟! . هل كل اهل هذه البلاد مساكين ضعفاء لا يقوون على الجهاد ؟ . . لا ، لا . لقد رفضت عشرات من امثال هذه الدعوى ، ولا يمكن ان استثنى احدا من القيام بواجب الجهاد للدفاع عن شريف مكة »

فعاد السيد عبد الرحمن الى البكاء والتوسل ، والتفت السيد المحروقي الى علي بك وقال : « لا شك فى صواب راى مولانا ، ولكنى التمس من فضله وحلمه اكرام شيبتي هذه باطلاق سراح ذلك الغلام ، وانا كفيل بانه يقوم لمولانا بخدمات نافعة أخرى ان شاء الله »

فقال علي بك : « قلت لك اننى قررت الا استثنى احدا من اهل هذه البلاد ، لعلمى بانهم يتهربون من الجهاد . لكنى اكراما لك ساطلق سراح ذلك الولد على أن يحل أبوه محله فى الحملة ويدفع عشرين كيسا »

فخشى السيد المحروقي أن يراجعه فى ذلك فيثور غضبه من جديد ويعدل عن هذا الاستبدال ، وقد يامر باخذ الولد وابيه معا الى الحرب . فالتفت الى السيد عبد الرحمن وهو لا يزال جاثيا بين

يدى على بك وقال له : « انهض وقبل يد الأمير جزاه الله خيرا ، ثم سارع الى اعداد عدتك للسفر مع الحملة الليلة ، وهات معك العشرين كيسا المطلوبة ، لاطلاق سراح ولدك »

فلم يسعه الا الطاعة ، ونهض فقبل يد على بك ، ثم انصرف عائدا الى منزله ، حيث أخبر زوجنه بما كان ، ففرحت بنجاة ولدهما ، وجزعت لحلول أبيه محله فى الحملة ، لكن السيد عبد الرحمن هون عليها الامر ، واسر اليها انه سيعمل على التخلف عن الحملة حالما تصل الى الشام ، وهناك يقيم بعكا فى انتظارها ومعها ولدهما حسن بعد ان يبيعا ما بقى من ممتلكاتهما فى مصر ، دون ان يشعرا بذلك اى انسان غير خادمه الخاص

فخف جزعها ووافقته على هذا الرأى ، ثم نادى خادمه الخاص واسر اليه ما تم الاتفاق عليه ، موصيا اياه بأن يبذل جهده فى اتمام ذلك ثم يصحب زوجته وولده الى عكا ، فقبل الخادم يده باكيا واعدا بتنفيذ الوصية . ثم حمل الأكياس المطلوبة وسار خلفه بعد أن ودع من فى المنزل الى القلعة حيث سلم الأكياس ، وتسلم ولده ، ثم ودعه وحل محله فى الحملة ، وعاد حسن مع الخادم الى المنزل ، لتنفيذ وصية أبيه فى الخفاء

□

لبث حسن مقيما مع أمه بالمنزل يومين بعد سفر الحملة وفيها أبوه . ثم اخذ بعد ذلك يتردد الى متجر ابيه فى وكالة الليمون ، متظاهرا بحلوله محله فى البيع والشراء ، لكنه فى الحقيقة كان يبيع كل ما استطاع بيعه ، دون أن يشترى شيئا ، حتى كاد ان ينتهى من بيع كل ما فى المتجر

وفى الوقت نفسه اخذت أمه فى بيع أمتعة المنزل الا ما خف حمله وغلا ثمنه من الحلى والملابس وغيرها ، كما باعت المنزل نفسه لأحد الجيران . وسافر الخادم الى الريف ومعه توكيل من السيد عبد الرحمن ببيع كل ممتلكاته هناك ، فأخذ فى بيعها معتزما

التعجيل بذلك ليعود بثمنها الى القاهرة ويصحب حسنا وسالمة آمه فى الفرار الى عكا للحاق بسيده هناك

وفيما كان حسن جالسا فى غرفته بالمنزل بعد ايام وهو يطالع بعض الكتب المخطوطة فى الطب ، وامه مشغولة باعداد حليها وبعض الأمتعة الثمينة الخفيفة فى صندوق صغير استعدادا لمغادرة مصر . سمع طرق عنيف على باب المنزل ، ثم توالى الطرق وتعالت الضوضاء فى الخارج ، وجاء بعض الخدم يهرعون الى حسن فى غرفته وقالوا : « ان الطارقين جماعة من العساكر المماليك وهم يسبون ويلعنون ويهددون بحرق المنزل بمن فيه »

فبغت حسن وامتلأ قلبه رعبا وفزعا ، وكذلك كان شأن امه ، وكل من فى المنزل من الخدم والجوارى . ثم ازداد فزعهم اذ سمعوا صوت مقذوف نارى اطلقه احد المماليك الهاجمين على المنزل ، واعقبه صوت مطارق تهوى على الباب لتحطيمه واقتحام المنزل بالقوة ، فلم يجد حسن بدا من فتح الباب واستقبال القادمين لعل فى ذلك ما يخفف من حدتهم وشرهم . فما كاد الخدم يفتحون الباب حتى تدفقت منه جموع العساكر شاهرين السيوف والخناجر والعصى والمسدسات ، واخذوا فى نهب كل ما فيه ، وشد وثاق من يصادفهم من الرجال والنساء مع الضرب والاهانة

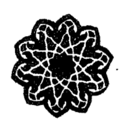
ولم تمض ساعة حتى كان المنزل قد اقفر وساده الخراب ، وساق المماليك حسنا وامه ومن معهما من الخدم والجوارى الى القلعة موثقين مهانين ، كما حملوا كل ما كان فيه من الأمتعة والآنية وغيرها الى هناك ، بعد ان استبقوا لأنفسهم ما وجدوه من المال والحلى وما اليهما من الأشياء الثمينة النادرة

وهناك فى القلعة سيق الجميع الى مجلس على بك فى القصر الذى اتخذه مقرا لمجلسه منذ عزل الباشا ، فلما وقعت عينه عليهم وهم يبكون ويستجيرون به مما لحقهم من العدوان ، صرخ فيهم غاضبا وقال : « هكذا يجب ان يكون جزاء الخونة والأنذال ، واذا كان كبيركم قد فر هاربا من المعسكر بعد ان رافنا به وقبلناه فى الحملة

بدلا من ولده ، فعما قريب يقبض عليه وينال ما يستحقه من القتل بعد أن ننزل به أشد العذاب ! »

ثم امر ببيع الجوارى والأمتعة والآنية بالمزاد ، وبأخذ الخدم الى السجن ريثما يبت فى امرهم ، واشار الى حسن وسالمة امه وقال لاعوانه المحيطين به : « أما هذان فجزاؤهما بعد الضرب والاهانة وبيع ممتلكاتهما على مشهد منهما ، أن يؤخذ هذا الولد الخائن فيوضع فى كيس ومعه حجر ثقيل فيه ثم يلقى فى النيل ليهلك غرقا . واما امه هذه فتؤخذ لتسند اليهـا احقر انواع الخدمة واقساها ، كى تقضى بقية حياتها فى تعب وشقاء ! »

وهنا ضجت سالمة والجوارى بالندب والعويل ، وجثـا حسن وامه بين يدى على بك ، وهما بتقبيل قدميه ، وهما يستغيثان به ويتضرعان اليه أن يرثى لحالهما ويشفق عليهما من ذلك المصير الرهيب ، لأنهما لا ذنب لهما فى فرار السيد عبد الرحمن من المعسكر . فلم يكن من على بك الا أن نظر اليهما وعلى فمه ابتسامة التشفى والغبطة بالانتقام ، ثم اعرض بوجهه المخيف عنهما ، وأمر اعوانه بأن ينفذوا ما امر به . فبادروا الى تنفيذه فى الحال



الحرب بين روسيا وتركيا

خرجت الحملة التى أعدها على بك الكبير من القلعة ، يتقدمها البكوات امراء المماليك على جيادهم المطهمة وهم فى ازيائهم الفخمة ، وعلى رأسهم محمد بك ابو الذهب قائد الحملة وصهر على بك . وخلف هؤلاء فرسان المماليك الجنود باسلحتهم الكاملة . وعددهم حوالى خمسة آلاف ، وفى ركاب كل منهم تابعان يرتديان السراويل القصيرة ، وفى يد كل منهما عصا . ووراءهم جموع غفيرة من الجنود غير النظاميين بين مصريين واتراك وهنود وشوام وسودانيين واحباش ويمنيين وغيرهم من مختلف الاجناس والألوان ، تتبعهم أرتال من الجمال والبغال والحمير تحمل المؤن والذخائر والمدافع والخيام

وضمت الحملة غير هؤلاء جميعا حوالى الفين من السراجين الذين يقومون بتدبير شؤون خيل البكوات المماليك ، كماضمت مئات من باعة الأطعمة والطبالين والزمارين ، والمرتزقة

وودعها على بك باحتفال ليلى كبير ، دعى اليه كبراء البلاد وعلماؤها ، وعرضها فيه امامهم بين دق الطبول والنفخ فى الأبواق ، واضاءة المشاعل ، وما الى ذلك من ضروب الزينة والتكريم

وامضت الحملة بقية ليلتها فى منطقة المطرية بالقرب من مسلتها الأثرية المشهورة . ثم استأنفت سيرها بعد الفجر بقليل ، وما زالت سائرة بمعداتها واحمالها بين حل وترحال ، حتى بلغت مدينة الصالحية ، فامر محمد أبو الذهب بك بالاستراحة هناك يومين

وكان السيد عبد الرحمن منذ خروج الحملة من حدود القاهرة لا يفتأ يفكر فى الوسيلة التى تكفل خلاصه منها ، وقد رأى فى عدم انتظام الجند الذين يسير معهم فيها ما قوى أمله فى ذلك الخلاص .

فلما حطت الحملة رحالها فى الصالحية وجد الفرصة سانحة لتنفيذ ما اعتزمه ، وانتظر حتى انتصفت الليلة الثانية للحملة هناك واوى زملاؤه فى الخيمة الى فراشهم بعد ان امضوا السهرة فى ضجة وصخب، ثم تسلل خارجا من المعسكر وظلام الليل يستره . فلما جاوزه دون أن يشعر أحد به ، تنفس الصعداء وشعر بأن حملا ثقيلا قد ازيح عن كاهله . ثم انطلق فى الطريق الذى جاء منه مع الحملة حتى بلغ حظيرة مهجورة كان أصحابها قد اخلوها خوفا من ان ينهب الجند دوابهم وماشيتهم ، فلجأ اليها بما يحمل من متاع وزاد ، وبقى فيها خائفا يترقب حتى سمع أذان الفجر ، ثم تلاه صخب الجند وضجتهم استعدادا للرحيل ، فاشتد خفقان قلبه مخافة ان ينكشف أمر فراره ، ولم يعاوده الاطمئنان الا بعد ان اخذت ضجة الحملة تخفت وتتضاءل حتى لم يعد يصل الى سمعه المرهف شىء منها . فغادر مخبأه ومشى على حذر فى عكس الاتجاه الذى سارت فيه ، حتى وصل الى أحد مضارب الاعراب فى تلك المنطقة ، فاشترى منهم هجينا ركبها وجعل فى رحله عليها ما يكفيه اياما من الزاد والماء ، ثم انطلق بها قاصدا بلدة العريش حيث اقام بها بضعة أيام حتى علم بأن قافلة ستخرج من هناك قاصدة عكا فى اليوم التالى فاندمج فيها راكبا هجينه

□

وصلت القافلة وفيها السيد عبد الرحمن الى عكا ، فأخذ يبحث عن منزل يقيم به فى انتظار وصول أسرته وفيما هو فى ذلك علم أن حاكم المدينة واسمه الشيخ ضاهر العمرى متحالف مع على بك وقد تعاهدا على الخروج من طاعة الدولة العلية . فخشى ان هو بقى فى عكا أن يقبض عليه الشيخ ضاهر ويعيده الى حليفه على بك فى مصر . ولم تكن عكا اذ ذاك سوى قلعة كبيرة محكمة التحصين وسكانها قليلون أكثرهم من حاميتها . ولم يكن لديه علم بأن أمر فراره قد انكشف وبلغ الى على بك فى مصر فكان من امره مع ولده وزوجته وسائر اهل منزله ما كان

واستقر رأيه أخيرا على ان يبقى فى عكا متنكرا فى زى المغاربه الذين يمارسون الطب الروحانى والتنجيم وكتابة الأحجبة والتعاويذ. وبقى على تلك الحال اشهرا ، وهو يتعقد القادمين الى المدينـة برا وبحرا عسى أن تكون أسرته بينهم ، ولـكنها لم تأت ، ولم يقف على اى نبأ عنها

وفى ذات يوم ، خرج الى الميناء كعادته يرقب القادمين اليه . فاذا بسفن تراعية كبيرة يبدو من هيئتها انها سفن حربية قـد ملأت الميناء ، وعلم ممن لقيهم من اهل المدينه هناك ان الملكة كاترينة قيصرة الروس هى التى ارسلت هذه السفن للتجول فى البحـر الأبيض المتوسط وتقديم المساعدة لعلى بك فى مصر والشيخ ضاهر فى عكا تشجيعا لهم على نبذ طاعة الدولة العليه والخروج عل[illegible] . نظرا الى [illegible] فى حرب مع روسيا . فعاد الى الخان الذى [illegible] وهو يفكر [illegible] وسيلة مأمونة تمكنه من الرجوع الى مصر والوقوف على ما أخر قدوم أسرته اليه حسب الاتف[illegible]

وفى صباح اليوم التالى توجه الى سوق [illegible] ما يحتاج اليه فى رحلته الى مصر . فاذا بجماعة من الجنود الروس الذين رآهم بالأمس فى السفن القادمة الى الميناء قد ملأوا السوق ، وهم جميعا يرتدون السراويل الافرنجية والواسعه ، وعلى رؤوسهم قبعات عالية من الفرو وما يشبهه ؛ ومعهم اسلحتهم من البنادق والمسدسات والخناجر . فهاب منظرهم لضخامة أجسامهم وارتفاع هاماتهم واكتناز وجوههم . وأراد التحول من طريقهم ، لـكنهم سرعان ما التفوا حوله مبدين دهشتهم من زيه المغربى المخالف لأزياء اهل المدينة ، وكلمه بعضهم بلغته الروسية فلم يفهم كلامه . ثم جاءه رجل كان بينهم يرتدى ملابس الافرنج المدنية فكلمه بالعـربية قائلا : « لا بأس عليك منهم ؛ فهم قد اعجبهم زيك ويريدون معرفة ما تبيعه مما تحمله فى جرابك »

فقال له : « ليس فى الجراب ما يباع ، ولـكن فيه كتبا سحرية

استعين بها على قراءة الطوالع ومعرفة ما يخبئه المستقبل ، وهذه صناعتى التى ورثتها عن آبائى وأجدادى »

وكان الترجمان من أهل قبرص ، وسمع بالمغاربة الذين يزاولون التنجيم والطب الروحانى وضرب الرمل وما الى ذلك . فأخبر الجنود الروسيين بذلك . وشد ما كانت دهشتهم ، ثم اعربوا للترجمان عن رغبتهم فى مشاهدة شىء من السحر الذى يقوم به هذا المغربى ، فنقل اليه رغبتهم ، وسرعان ما جلس السيد عبد الرحمن واخرج من جرابه أوراقا وجلودا مختلفة الالوان والاحجام نشرها امامه وفى بعضها رسوم غريبة ، كما أخرج صرة بها بعض الرمل وفتحها ثم اخذ يخط بأنامله رسوما وأشكالا مختلفة على الرمل . واعقب ذلك بأن أخرج من منطقته دواة نحاسية مستطيلة تناول قلما من خزانة متصلة بها ، وغمس طرفه فى الدواة ثم كتب به كلمات بلغة غير معروفة على ورقة بيضاء فى حجم الكف ، متظاهرا بانه يكتب ما علمه من أوراقه ورمله . واخيرا رفع وجهه والتفت الى الترجمان وقال : « اذا صح ما علمته بوساطة العلوم التى حذقت أسرارها بالوراثة والرياضة الروحية ، فهؤلاء اتباع ملكة عظيمة تحكم بلادا بعيدة واسعة ، وسيكتب لها النصر بوساطتهم على عدو خطير لها »

فاعجب الترجمان القبرصى بهذا الجواب وعده دليلا على حذق المنجم وبراعته ، وما كاد ينقله الى البحارة الروسيين حتى كانوا أشد اعجابا به ، ثم أجزلوا مكافأة السيد عبد الرحمن ورغبوا اليه بوساطة الترجمان ان يصحبهم الى سفنهم الراسية فى الميناء ليطلع زملاؤهم من الضباط والجنود على غرائب علمه وفنه . فوعد بأن يوافيهم الى الميناء فى اليوم التالى ومعه بقية الادوات اللازمة له . ثم غادر السوق عائدا الى الخان وفى عزمه ان يحتال للبقاء فى تلك السفن حتى تقلع وتصل الى أحد السواحل المصرية التى تعتزم السير اليها ، فينزل هناك ، ويسهل عليه الذهاب الى القاهرة لمعرفة ما تم فى أمر اسرته

وفى صباح اليوم التالى غادر الخان ولم يترك فيه من أمتعته الا ما ليس فى حاجة اليه . ثم اخذ طريقه الى الميناء ، فما كاد يبلغه حتى بصر به بعض الجنود الذين لقيهم فى السوق فعرفوه بزيه المغربى والجراب الذى يحمله على كتفه ، فنادوه وصعدوا به الى سفينة الأميرال أورلوف قائد أسطولهم ، وقدموه له ولمن معه من الضباط فكان سرورهم عظيما بما تنبأ به لهم من الأمور العامة والخاصة ، وما زال هناك موضع اكرام الضباط والجنود حتى اعتزم الإسطول الرحيل ، فرغبوا اليه فى البقاء معهم لينفعهم بعلمه وفنه ، فقبل على أن يتركوه ينزل بأى مدينة يمرون عليها

▭

أقلعت الحملة الروسية من ميناء عكا فى جو هادىء جميل ، فمضت سفنها تشق عباب البحر باسطة اشرعتها ، ووقف السيد عبد الرحمن فى زيه المغربى على ظهر السفينة التى ركب فيها يتأمل الساحل السورى حينا ، والأفق الممتد على مدى النظر من الجهة الأخرى حينا ، ثم يطلق لفكره العنان فيتخيل أنه وصل الى داره فى القاهرة ولقى ولده وزوجته فلم يعرفاه أول الأمر لتنكره فى ذلك الزى الغريب ، ثم ما كادا يعرفانه حتى غمرهما السرور مثله ، وراحوا جميعا يبكون من فرط فرحتهم باللقاء بعد طول الغياب

على انه كان لا يلبث ان يتذكر تأخرهما عن موافاته فى عكا ، فتتقاذفه الهواجس ، ويكاد قلبه يثب من صدره خشية أن يكونا قد أصيبا بسوء ، ثم تنهل الدموع من عينيه على غير ارادته فيسارع الى مسحها بمنديله ، مستعينا على بلوغ غايته بالتزام الكتمان

وبعد خمسة أيام ، كانت سفن الأسطول تسير خلالها مجتمعة حينا ، ومتفرقة حينا آخر ، لاحت سواحل مصر من بعيد ، فوقف السيد عبد الرحمن على حافة السفينة التى هو فيها يتشوف اليها وقلبه شديد الخفقان ، وود لو أن له جناحين يطير بهما الى القاهرة

لرؤية ولده وزوجته ، وخطر بباله انهما قد يكونان فى هذا الوقت فى طريقهما الى عكا حيث تواعدوا على اللقاء ، فندم على تعجله الرجوع الى مصر ، لكنه تجلد وصبر حتى يصل ويقف على الحقيقة

وحانت منه التفاتة الى السفينة القريبة من السفينة التى يركب فيها ، فوجد على ظهرها جنودا من الارناءوط ــ الألبانيين ــ وقد عرفهم بأزيائهم التى يرتدى مثلها مواطنوهم فى مصر ، وهى مؤلفة من القباء (القفطان) الابيض القصير ، ويسمونه (التنورة) . وسيقانهم مكسوة بالجلد ، وعلى اكتافهم عباءات قصيرة ، وفوق رؤوسهم طرابيش طويلة مثنية الى الخلف وتتدلى منها (أزرار) طويلة

فعجب من وجود هؤلاء بين الاسطول الروسى ، ثم علم من الترجمان القبرصى أن الاسطول يضم حوالى اربعة آلاف منهم ، جيء بهم لاستخدامهم فى الحرب البرية اذا اقتضى الامر ذلك

وبعد قليل وصلت السفن الى ميناء دمياط وقد طوى البحارة اشرعها استعدادا لرسوها هناك . وشاهد السيد عبد الرحمن افواجا من الدمياطيين على الساحل يتطلعون الى السفن الغريبة القادمة فى دهشة واضطراب . ثم ما كادت السفن تلقى مراسيها ، حتى جاء كتخدا سردار المدينة (وكيل المحافظ) لتحية اميرال الأسطول ، بالنيابة عن على بك ، وابداء الاستعداد لمده بما يحتاج اليه من المؤن والماء وغيرهما من المعدات . وعقب انصراف الكتخدا ، ذهب السيد عبد الرحمن الى الاميرال فقبل يديه مودعا مستأذنا فى النزول الى البر ، فأذن له ومنحه مكافأة اخرى ، كما منحه مثلها كثيرون من ضباط الأسطول وجنوده

الست نفيسة المملوكية

اخذ اعوان على بك حسنا من القلعة على مشهد من أمه وهم يضربونه ويسبونه ، وساروا به الى مصر العتيقة لاغراقه فى النيل هناك تنفيذا لأمر مولاهم . فلم تطق المسكينة صبرا على رؤية وحيدها يساق الى ذلك المصير الرهيب ، واغمى عليها بعد ان قطعت شعرها وشقت ثوبها وجرحت خديها وعينيها من شدة اللطم والعويل. فحملها بعض الجنود ومضوا بها الى قصر على بك عند بركة الازبكية ، حيث سلموها لقيمة القصر ، وابلغوها أمر على بك بأن تلحق بالجوارى الخادمات

وكانت تلك البركة حينذاك تشغل مكان حديقة الازبكية وما يحف بها من الأبنية الآن ، فكان يحدها من الشرق حارة النصارى ، ومن الغرب بساتين وغياض هى التى صارت حى الاسماعيلية فيما بعد ، ومن الجنوب منطقة المقس حيث يقع الآن حى التوفيقية وما بعده ، ومن الشمال منطقة العشماوى حيث محافظة القاهرة . وهناك كان يقوم قصر على بك الكبير

وكانت المياه تأتى البركة من النيل عبر منطقة المقس السالفة الذكر، وتزداد فى أيام الفيضان ، مارة بقنطرة يقال لها قنطرة الدكة ما زال مكانها معروفا حتى الآن . فتنعكس على تلك المياه اضواء القصور المشيدة حول البركة لسكنى الأمراء والأعيان ، وتكسبها جمال رونق وحسن منظر وبهاء ، ولا سيما فى ليالى الصيف والخريف اذ يطيب السهر والسمر فى تلك القصور وتزداد أنوارها ، فتنعكس فى الابداع

ولما افاقت سالمة من اغمائها ، ووجدت نفسها بين عشرات من

جوارى الخدمة بالقصر ، تذكرت ما نزل بها من الفواجع والنكبات فعادت الى البكاء ، متضرعة الى الله أن يعجل بموتها كى تلحق بوحيدها الذى اخذوه ليغرقوه فى النيل . وعبثا حاول الجوارى تعزيتها وتوصيتها بالصبر فى محنتها ، فأمضت النهار دون أن تذوق شيئا من الطعام والشراب ، ولم تنقطع عن الندب والعويل ، غير مبالية ما يتهددها بسبب ذلك من التعذيب والامعان فى التشفى والانتقام

وكان لعلى بك فى ذلك القصر زوجة رائعة الجمال اسمها نفيسة ، وقد اشتهرت بكمال العقل وحسن الراى ، والبر والرحمة بالفقراء والضعفاء . (وهى التى تزوجها مراد بك فيما بعد وبقيت حية الى ما بعد الحملة الفرنسية ، واشارت الصحف الافرنجية بمكانتها ومبراتها ، ولا سيما حمايتها لكثير من الافرنج وايواءهم فى دارها خلال الاضطرابات)

فلما سمعت بقصة سالمة ، أرسلت تدعوها الى مقابلتها فى احدى حجراتها الخاصة بالقصر ، واحسنت استقبالها ، ثم اشارت اليها بالجلوس على وسادة بجانبها ، وقالت لها : « علمت أنك ممتنعة عن الأكل مستغرقة فى الحزن ، وانت فيما أرى سيدة عاقلة مؤمنة ، فكيف تلقى بنفسك الى الهلاك بالاستسلام للحزن واليأس ؟ »

فبقيت سالمة ساكتة مطرقة والدموع تنحدر من عينيها ، وادركت نفيسة ان المسكينة لا تقوى على التجلد ، فأزدادت حنوا عليها ودنت منها ومرت بيدها على راسها مترفقة وقالت لها : « اصبرى يا اختاه فالصبر مفتاح الفرج والله لا يضيع أجر الصابرين »

فتنهدت سالمة تنهدا عميقا ، ومسحت دموعها وقالت : « من لى بالصبر يا سيدتى وقد أخذوا ولدى الوحيد من بين يدى ليلقوا به فى النيل ، ومن قبل ذلك اخذوا اباه الى الحرب ، فهرب وهام على وجهه فى الطرقات ولا أدرى أحى هو ام ميت ، ولو أنه بقى على قيد الحياة فلن يتورعوا عن الحاقه بولدنا دون رحمة ولا اشفاق ! قالت ذلك وعادت للبكاء

فتأثرت الست نفيسة ولم تتمالك نفسها عن البكاء معهـا . ثم أخذت تعزيها وتحاول تخفيف مصائبها والترفيه عنها بما جبلت عليه من رقة العاطفة وطيبة القلب وحب الخير

ولم يسع سالمة رغم فداحة خطبها الا أن تستأنس بلطف هذه السيدة ونبلها وسمو خلقها ، وهمت بيديها لتقبلهما شاكرة ، فلم تمكنها من ذلك وقالت لها : « هذا أقل ما يجب يا أختى ، وانى ادعو الله ان يوفقنى الى ما يخفف كربك ، فهو مفرج الكروب ورحمته وسعت كل شىء »

فقالت سالمة : « جزاك الله خيرا يا سيدتى ولا اراك مكروها فى عزيز لديك » . وعادت الى اطراقها وقد أخذها العجب من أن تكون مثل هذه السيدة الفاضلة الكاملة الحنون قرينة لجبار عنيد غضوب مثل على بك ولكنها قالت فى نفسها « كل شىء نصيب ولله فى خلقه شؤون »

وكانت الست نفيسة فى ذلك الوقت مرتدية ملابس البيت المؤلفة من ثوب حريرى رقيق مشقوق من أعلى الصدر ، وفوقه قباء من المخمل مشدود الى خصرها بمنطقة من الحرير الدمشقى الثمين ، وفوقه معطف فضفاض واسع الكمين يتدلى منهما طرفا كمى قميصها الشفاف ، وقد تحلت بعقود وأساور من مختلف اللآلى والجواهر وتدلى من اذنيها قرطان هما جوهرتان كبيرتان . وهى مكتنزة الجسم ناصعة البياض مع حمرة خفيفة واسعة العينين رقيقة الشفتين مستقيمة الأنف وضاحة الجبين ، ذهبية الشعر قد ضفرته ضفيرتين أرسلت احداهما على صدرها والاخرى على ظهرها ، وغطت أعلاه باكليل مرصع ، فبدت غاية فى الجمال والجلال

ولاح لسالمة بصيص من الأمل فى انقاذ ابنها من الموتة الشنيعة التى حكم عليه بها على بك ، فهمت بأن تترامى على قدمى الست نفيسة وتتضرع اليها أن تتوسط لتحقق لها هذا الأمل . ولكنها رأتها تنهض من مجلسها وتصفق منادية جاريتها الخاصة (منورة)

فنهضت سالمة ووقفت بين يديها ساكتة حتى جاءت الجارية ، وتلقت من سيدتها كلمات أسرت بها اليها ، ثم انصرفت حانية راسهـا سمعا وطاعة

▭

كانت الست نفيسة قد علمت بما أمر به زوجها على بك من الحاق سالمة بخدمة القصر والقاء ولدها فى النيل ، فاستنكرت الأمر فيما بينها وبين نفسها . ثم ازداد تاثرها حين علمت بامتناعها عن الطعام والشراب وانقطاعها للبكاء والعويل ، فلما قابلتها بعد ذلك ورات بنفسها ما هى عليه من سقم واكتئاب وزهد فى الحياة ، حدثتها نفسها بان ترسل من عندها رسولا الى الجند الذين كلفوا اغراق ابنها ، آمرة اياهم بالعدول عن ذلك ، ولـكنها رات الانتظار حتى يعود على بك الى القصر وتتوسط لديه فى الامر ، مخافة أن يغضب لاقدامها على ذلك دون اذنه ، وقد يؤدى به الغضب الى الانتقام منها بذبحها او القائها فى النيل ، أو طردها من القصر مطلقة مهانة على أهون تقدير

ولم يكن لديها شك فى أنه يحبها ويؤثرها على كل نسائه وجواريه ، ولكنها كانت ــ مع ذلك ــ لا تأمن حدة غضبه ، وتعلم انه سريع الانتقام لا يطيق أن يخالف احد اى امر يصدره . هذا الى علمها بأن المماليك جميعا لا يرعون حرمة النساء ولا شيء عندهم أسهل من الطلاق

على انها خشيت كذلك ان تتاخر عودته الى القصر فتضيع فرصة انقاذ الفتى البرىء المظلوم وتذهب نفس امـه المسكينة حسرات عليه ، فنادت خادمتها الخاصة الأمينة (منورة) واسرت اليها ان تسارع الى ارسال من يلحق بالجنود ويبلغهم رغبتها فى العفو عن الفتى واطلاق سراحه ومعاونته على الفرار من مصر الى سوريا او غيرها من البلاد المجاورة فى الحال

وفيما هى تتحدث مـع سالمة عقب انصراف (منورة) وتكرر النصح لها بالصبر والا تيأس من الفرج بعد الشدة ، وصـل الى



والتفت على بك الى زوجته وقال لها : « ما الذى جاء بهذه الخائنة الى هنا ؟ »

سمعهما وقع أقدام تقترب من الغرفة ، فأجفلت الست نفيسة وامتقع لون وجهها ، وطالعت سالمة فى نظراتها وحركاتها معانى القلق والاضطراب والخوف ، فأدركت أن القادم على بك ، وأن زوجته الرحيمة الطيبة القلب تخشى غضبه لسماحها لها بدخول غرفتها ، فهمت بالخروج تفاديا لشره ، لكنها ما كادت تصل الى باب الغرفة حتى دخل منه على بك ، فلم تتمالك قواها لهول المفاجأة وسقطت على الارض مغمى عليها

وعرفها على بك حين وقعت عينه عليها ، فحمى غضبه والتفت الى زوجته التى خفت الى ملاقاته محاولة ملاطفته وقال : « ما هذا يا نفيسة ؟. ما الذى جاء بهذه الخائنة الى هنا وقد أمرت بأن تسند اليها احقر أنواع الخدمة ؟ »

فتكلفت الابتسام ، وتجلدت لتخفى اضطرابها ، وقالت له : « انها يا مولاى لم تأت الا بطلب منى ، اذ سمعت بأنها كادت تقتل نفسها حزنا على ما آل اليه أمرها ، وامتنعت عن تناول الطعام ، فدعوتها لأخاطبها فى ذلك »

فنظر اليها شزرا ، وقال محتدا : « كادت تقتل نفسها ؟ .. ما شاء الله !. لعلها اشتاقت الى ولدها المدلل الجبان ؟. حسنا . سأرسلها اليه الآن ! »

ثم أشار الى بعض الجوارى أن يخرجن سالمة من الغرفة ويسلمنها الى بعض حرس القصر ليلقوا بها فى النيل ، فسارعن الى تنفيذ الأمر

□

افاقت سالمة من اغمائها ، فوجدت نفسها محمولة على أيدى بعض جوارى القصر الحبشيات والتركيات ، وما علمت بما أمر به على بك حتى صاحت قائلة : « مرحبا بالموت ما أعذبه وأحلاه ، ولا سيما أنه سيقربنى من ولدى وفلذة كبدى العزيز »

وتذكرت ما لقيته من لطف الست نفيسة وحنانها ولطف مواساتها ، فخشيت أن تكون قد نالها سوء بسببها ، وسألت الجوارى فى ذلك ،

فلما اطمأنت الى نجاة السيدة الفاضلة من شر غضب زوجهـــا ؛ تنهدت تنهد الارتياح ، وقالت للجوارى وهن ينظرن اليهـا راثيات لحالها باكيات : « اشكركن يا اخواتى العزيزات على عواطفكن الرقيقة النبيلة ، وكل ما أرجوه الآن أن تسرعن بى الى النيل حيث ينتظرنى ولدى العزيز ، وأن تبلغن سيدتكن الـكريمة انى لن انسى فضلها ونبلها حتى القى الله فأضرع اليه ان يجزل مكافأتها ويكتب لها السعادة فى الدارين »

وكان لكلامها اكبر الأثر فى نفوس الجوارى ، فلم يستطعن امســاك دموعهن رثاء لحالها واعجابا بوفائها الدال على طيب عنصرها . فعرجن بها الى احدى الغرف المخصصـــة لهن فى القصر ، وجئن اليهـا ببعض الطعام راجيات منها أن تتناوله فاعتذرت من عدم استطاعتها اجابة طلبهن ، وكررت لهن الشكر

وأخيرا مضت احداهن الى قيم القصر ، فأبلغته امر على بك بالقاء سالمة فى النيل ، وروت له قصتها باختصار . فلما رات التأثر باديا فى وجهه ، انتهزت هذه الفرصة ، وتضرعت اليه أن يعمل على انقاذ تلك المسكينة المظلومة ، ولا سيما ان الست نفيسة تعطف عليها وترثى لما أصابها فى ولدها وزوجها ومالها ، ولا شك فى انها تسر بانقاذها من ذلك المصير . فوعدها ببذل جهده فى هذا السبيـــل ؛ ثم نادى بعض الحرس ممن يثق بهم ، واتفق معهم على التظاهر بأخذ سالمة من القصر لالقائها فى النيل خارج القاهرة ، ثم اطلاق سراحها هناك والنصح لها بالفرار الى الريف او الاختفاء فى أى مكان منعزل ، والا يشعروا بذلك أى انسان

فقالوا : «سمعا وطاعة» . ثم خرجوا بها من القصر ، وهى لا تـكاد تقوى على السير لفرط ضعفها وحزنها ، ولا تعلم شيئا مما اتفق عليه قيم القصر مع اولئك الجنود

ولما بلغوا مصر العتيقة ، كان الليل قد سدل نقابه ، ولـكن سـالمة أدركت انهم يسيرون بحذاء النيل هناك ، من انعكاس ضوء النجـوم على صفحة الماء ، فتذكرت ابنها ولم تملك عواطفها فانفجرت باكية .

وكانت قد بقيت صامتة مطرقة طول الطريق ، فحسب الجنود انهــا تبكي خوفا من اغراقها تنفيذا لأمر علي بك . وهمس كبيرهم في أذنها قائلا : « لا تبكي يا سـيدتي ولا تخافي ، فاننا لن نمسك بأي سـوء ، وسنطلق سراحك عما قليل لتمضي الى أي مكان شئت وتختفي فيه »

فصاحت سائلة قائلة : « تطلقون سراحي ؟ . . من قال لكم هذا؟ . . كلا يا سيدي لست راغبة في الحياة ؛ فهيا عجلوا بموتي ولكم الشكر !»

فبهت الجنود ، وعجبوا لايثارها الموت ورغبتها في التعجيــل به ، بدلا من ان تطير فرحا بالنجـــاة ، وعاد كبيرهم فقال لهــا : « لعلك لا تصدقين اننا سنطلق سراحك ولا نغرقك في النيل ؟ »

فقالت : « سواء عندي اكنتم صادقين أم ساخرين ، وليس أحب الي من ان اغرق الآن لالحــق بولدي الذي اغرقتمــوه هنا قبلي ولم ترحموا شــبابه ، ولا اتقيتم الله في قتله ظلما وعــدوانا بلا أي ذنب جناه ! »

فادرك الجنود انها ام الفتى الذي سمعوا بأن علي بك أمر باغراقه في الصباح ، وازدادوا رأفة بها ورثاء لمصابهــا . ثم اخذوا في تعزيتهــا متنصلين من تبعة اغراق ابنها ، واكدوا لها انهم سيطلقون سراحهــا ويعاونونها على الاختفاء تنفيذا لرغبة الست نفيسة ، فلما ســمعت ذلك صدقتهم وازدادت تقديرا لفضل تلك السيدة البارة الـكريمة الرحيمة ، لكنها قالت لهم : « جزاها الله وجزاكم أحسن الجزاء،غير أني لا اريد الحياة بعد قتل ولدي وفقد ابيه،فارجو منكم ان تقتلوني ايضا وتريحوني من العذاب الذي أنا فيه ! »

□

ما زال الجنــود سائرين بسالمــة وهم يحاولون تعزيتها واقناعهــا بالتزام الصبر والرضوخ لمشيئة القدر،حتى وقفوا بها أمام بناء هناك في مصر العتيقة ، ثم مضى كبيرهم الى باب صغير مصفح بالحــديد ، يوصل اليه من ممر منحدر ، فطــرقه طرقا عنيفا متواليا ، اعقبــه صوت ضعيف مرتجف منبعث من الداخل يسأل : « من الطارق ؟ » .

وما كادوا يجيبونه بأنهم من الجنود حتى سارع الى فتح الباب وفى يده مصباح زيتى خافت الضوء ، فدخلوا وسالمة وراءهم ، وهى تعجب من أمر ذلك المكان،وبابه الحديدى الضيق ذى المفتاح الخشبى الغليظ، وما زالوا سائرين فى زقاق ضيق على جانبيه ازقة اخرى مثله ، والبواب الشيخ العجوز يتقدمهم بمصباحه ، حتى بلغوا بابا صغيرا آخر طرقوه ففتح لهم ودخلوا وهى معهم ، ثم سمعت كبير الجنود يسال البواب الجديد : « اين الرئيس ؟ . اننا نريد مقابلته فى أمر خاص » . فمضى البواب وغاب قليلا ثم عاد ومعه رجل فى مثل لباسه وسنه . وبعد أن تبادل الرجل مع كبير الجنود بضع كلمات لم تتبينها ولكنها ادركت من اشارتهما اليها انها خاصة بها ، عاد الرجل من حيث أتى ، ثم اقبل بعد حين ومعه سيدة استقبلتها مرحبة ، ثم قادتها الى حجرة صغيرة خالية الا من فراش بسيط ومصباح زيتى صغير ، واشارت اليها أن تستريح فيها حتى الصباح ، وبعد ان جاءتها ببعض الطعام واناء به ماء ، تركتها راجية لها نوما طيبا هانئا ، واغلقت باب الحجرة وانصرفت . فبقيت سالمة ساعة تتقاذفها الهواجس والأفكار ، ولم تجد فى نفسها قابلية لتناول الطعام رغم أنها لم تذق شيئا منه منذ وقت طويل ، فاكتفت بجرعة من الماء ، وتمددت بثيابها على الفراش الموضوع فى الحجرة ، فما لبثت قليلا حتى اخذها النعاس ، ولم تستيقظ لفرط ما قاسته من الجهد والحزن وعديد المفاجآت الا قرب ظهر اليوم التالى

ولم تكن هذه الحجرة الا احدى حجرات دير كنيسة مار جرجس ، ورهبانه جميعا من اليونانيين . ولليونان يومئذ امتيازات كثيرة فى مصر لكثرة جاليتهم فيها ، ولحاجة المماليك اليهم فى الطب وتجارة الرقيق وغيره ، وصنع السفن وقيادتها . ولم يكن بالدير راهبات سوى راهبة جاءت من اليونان لتمضية بضعة اشهر فى مصر ، هى التى استقبلت سالمة ومضت بها الى تلك الحجرة

وبجانب هذا الدير تقوم أديار اخرى كثيرة للأقباط والأروام ، ومن بينها دير أبى سرجة ، ودير المعلقة ، ويحيط بها جميعا سور اشبه

بأسوار الحصون ، اذ كان ذلك البناء كله حصنا فيما مضى ، وفيه حاصر العرب أقباط مصر حين جاءوا لفتحها بقيادة عمرو بن العاص

اما الجنود الذين جاءوا بسالمة ، فانصرفوا عائدين أدراجهم بعد ان أوصوا بها رئيس الدير خيرا ، وطلبوا اليه أن يبقيها فى مأمن عنده لأن حياتها مهددة بالخطر ، فلم يسعه الا القبول

ولما وصلوا الى الباب الخارجى وجدوه مفتوحا ، والبواب ليس فى مكانه هناك . فعلموا انه فر خوفا منهم كما فعل أكثر الرهبان الذين صادفوهم داخل البناء ، وأوجسوا خيفة من أن يكون أحد هؤلاء قد ظن أنهم آتون للنهب والسلب ، كما كان يحدث فى ذلك الحين ، فذهب ليشكوهم الى المعلم ابراهيم الجوهرى أو المعلم رزق ، وهما يومئذ ملجأ القاصدين وذوى الحاجات من أقباط مصر ، لتوليهما الكتابة عند على بك ، وحصولهما بسبب ذلك على كثير من سعة النفوذ والسلطان فضلا عن الثراء الوفير

وكان أن تسلل الجنود خارجين من الباب ، ثم أغلقوه وراءهم وعادوا الى القصر دون أن يشعر أحد من أهله بشىء مما قاموا به



الشيخ المجذوب

بقى السيد عبد الرحمن اياما فى دمياط بعد وصوله اليها مع الاسطول الروسى ، ثم وجد سفينة نيلية تستعد للسفر منها الى القاهرة حاملة مقادير كبيرة من الارز فاتفق مع اصحابها على أن يأخذوه معهم . وفى الموعد المحدد لاقلاع السفينة كان قد صعد اليها بأمتعته وبينها طبل صغير وعصا مصبوغة ، وعدد من الاجراس الصغيرة وصرة بها قطع مختلف الوانها من الملابس القديمة ، ثم اختار لنفسه مجلسا فى أحد جوانب السفينة وقبع فيه وبجانبه أمتعته بعد ان خلع عنه الزى المغربى الذى كان متنكرا فيه ، معتزما التنكر فى زى آخر

وما اقلعت السفينة حتى انطلقت بها الريح فى الاتجاه المطلوب ، وسر بذلك ملاحوها ، فاجتمعوا على ظهرها بعمائمهم الكبيرة المرسلة اطرافها على أقفيتهم ، وبسراويلهم الفضفاضة المشدودة على القدمين، واخذ بعضهم فى الغناء بمصاحبة المزمار والنقر على الدفوف ، كما اخذ بعضهم يتلهون بتسلق سارية الشراع او حمل الاثقال بينما التجار يتلهون بمشاهدة هؤلاء وهؤلاء أو الاستمتاع بمناظر السفن الاخرى وما يحف بالشاطئين من زروع واشجار وفلاحين يعملون فى الحرث والرى وغيرهما من أعمال الحقول

اما السيد عبد الرحمن فكان فى شغل عن ذلك كله بالتفكير فى أمر ولده وزوجته ، فتارة تحدثه نفسه بأنهما أصيبا بعد سفره بسوء على أيدى المماليك ، وتارة يخيل اليه انهما ذهبا الى عكا بعد مغادرته اياها . واخيرا نهض ومضى الى حافة السفينة فتوضا ثم عاد الى ركنه المختار فصلى ودعا الله ان يقيه وأسرته الضر ويجمع

شملهم فى أمان واطمئنان . ثم عكف على اعداد الزى الجديد الذى رأى أن يتنكر فيه بدلا من زيه المغربى ، فرقع جبته بالقطع الملونة الصغيرة ، وثبت فيها الأجراس الصغيرة والجلاجل ، ثم ارتداهـا واستعاض عن العمامة بطرطور طويل بعد أن نفش شعر رأسه وأرسله على وجهه فاختلط بلحيته وعلق الطبل الصغير على صدره . ثم نهض فغادر مكانه والعصا الملونة فى يده ، وأخذ يتجول فى أنحاء السفينة وهو يقرع الطبل ، والاجراس والجلاجل تصلصل متأثرة بحركته ، فلم يبق على ظهر السفينة من لم يلفته منظره العجيب ، وراحوا جميعا يتسابقون الى التبرك به والاصغاء الى الكلمات المبهمة التى يتمتم بها ، اذ اعتقدوا أنه من المجاذيب المكشوف عنهم الحجاب !

وما أتم السيد عبد الرحمن جولته الأولى حتى كان قد اطمأن الى اتقان تنكره . ثم استمر يقوم بمثل هذه الجولة على السفينة مرات فى اليوم والتجار والبحارة يزدادون تيمنا به ويتنافسون فى العمل على مرضاته . حتى رست السفينة فى ميناء بولاق فغادرها وهو على تلك الهيئة ، وانطلق يتجول فى الاسواق والأزقة متظاهرا بالانجذاب ، فلم تمض ساعة حتى كان يسير وخلفه جمهور كبير من الصبيان والمتعطلين والمارة على اختلافهم ، وهم بين ساخر منه ، ومتبرك به . وما زال سائرا حتى بلغ الحارة التى بها منزله ، فجلس ببابها متظاهراً بالرغبة فى الاستراحة ، وهو انما يريد صرف الجمهور السائر خلفه ، ليتفرغ بعد ذلك لتفقد أهل منزله والوقوف على حقيقة حالهم .

ومر به أحد الفقهاء ، فرثى لحاله وأمر الناس فانصرفوا عنه ، ثم مد يده اليه ببعض الدراهم فلم يقبلها ، وقال له متظاهرا بالبله والانجذاب : « لا حاجة بى الى دراهم ولا آخذها حتى لا تغضب أمى وتضربنى ! »

فابتسم الفقيه واعتقد أنه من أهل الصلاح والتقوى ، فطلب اليه أن يرافقه الى بيته ، فهز رأسه اشارة الرفض

وعرض عليه الفقيه ان يأتيه ببعض الطعام ، فرفض أيضا ، لكنه أشار اليه بوضع يده على فمه أنه يريد ماء ، فانطلق الفقيه الى بواب الحارة ، وجاءه من عنده بقلة ملأى بالماء ، فاكتفى برشفات منها واعادها اليه ، ثم تظاهر بأنه يريد النوم ولكنه يخشى على طبله أن يخطفه الصبيان . فطلب الفقيه من البواب ان يخلى له مكانا بجانبه وراء الباب لينام فيه آمنا ، وبادر البواب باجابة الطلب وهو فرح فخور

ومضت ساعات والسيد عبد الرحمن متظاهر بالنوم خلف باب الحارة ، وكلما سمع وقع اقدام خارجة أو داخلة اختلس النظر نحو الباب لعل القادم ابنه أو أحد خدم المنزل . فلما لم يمر به احد منهم عاوده قلقه ، ولم يطق صبرا بعد ذلك ، فهب من مرقده فجأة ، واخذ يقفز ويتمتم بكلمات غير مفهومة ، ثم هم بطبله فعلقه على صدره فوق مرقعته ، واحكم وضع طرطوره الطويل على رأسه ، وتناول عصاه الملونة ، ومشى فى الحارة وهو يقرع الطبل فيختلط دويه بصليل الأجراس والجلاجل التى فى مرقعته . وما زال سائرا بهذه الحالة حتى وصل الى منزله وقد اوشكت الشمس أن تغرب ، فوجد الباب مغلقا ، وسمع أصواتا منبعثة من الداخل لا عهد له بها ، فاشتدت به الوساوس والهواجس ، وهم بطرق الباب لكنه آثر الانتظار بعض الوقت ، فجلس بقربه مستمرا فى قرع طبله والصلصلة بأجراسه . واهل الحارة يمرون به ضاحكين منه متيمنين بوجوده فيها وهم يحسبونه من المجاذيب اهل الكشف

وبعد قليل ، فتح الباب وخرج منه شيخ وقور عرف السيد عبد الرحمن أنه زميل قديم له من التجار فى وكالة الليمون ، وهم بأن يناديه ، فاذا بالتاجر يقصده من تلقاء نفسه ويحاول اعطاءه بعض الدراهم ، فرفض أخذها متظاهرا بالغضب ، وافهمه بالاشارة انه فى حاجة الى الطعام والنوم . فأخذ التاجر بيده وعاد به الى المنزل حيث أدخله حجرة الجلوس فى الطابق الارضى ، وأمر الخادم بأن

يأتيه بالطعام ويهيىء له منامة ، ثم استأذن فى الخروج سائلا اياه ان يذكره بدعواته الطيبات . وانصرف بعد أن أوصى الخادم بالسهر على خدمة الشيخ المبارك وتلبية كل ما يطلبه

□

ما كاد السيد عبد الرحمن يدخل منزله مع زميله التاجر الذى وجده ساكنا فيه حتى ادرك ان نظام المنزل قد تغير الى حد كبير ، ولم يجد فى طريقه الى حجرة الجلوس أى أثر لأحد من أهله أو خدمه. فتسارعت دقات قلبه ، وكاد يجهش بالبكاء ، لكنه تجلد حتى لا يفتضح أمره ، وصبر الى أن انصرف زميله التاجر ، ثم جاءه الخادم بالطعام ، فتظاهر بالغضب ، وأمر باعادته ، ثم هم بحمل طبله وعصاه وطرطوره . ورفع صوته قائلا وهو يتظاهر بانه يحدث نفسه : « لا . لا . هذا مستحيل »

فوجم الخادم ، وخشى أن يترك المجذوب يغادر المنزل فيغضب سيده ، فاقترب من السيد عبد الرحمن وهم بتقبيل يده قائلا : « ما الذى اغضبك ، اطلب ما شئت فانى فى خدمتك »

فقال له : « انا لا آكل طعاما ولا انام فى منزل خلا من اصحابه »

ففهم الخادم أن الشيخ المجذوب عرف بالالهام قصة الظلم الذى اوقعه المماليك بأصحاب المنزل الأولين ، فمال على يده وقبلها فى خشوع واجلال وقال : « رحمهم الله يا سيدى ، ورحمنا جميعا من الظلم والاضطهاد » . ثم تضرع اليه ألا يغادر المنزل ، وان يطلب الطعام الذى يريده فيحضره له فى الحال ، حتى لا يغضب سيده ويطرده

فتكلف السيد عبد الرحمن الضحك ساخرا وقال للخادم : « كيف يطردك ؟ .. أهو الذى طرد من كانوا فى المنزل من قبل ؟ »

فقال الخادم : « كلا يا سيدى ، ان على بك هو الذى طردهم ،

وجردهم من املاكهم ، لأن عميدهم خالف أمره وهرب من الحملة التى أرسله فيها الى الحجاز »

قال : « ألم تعلم أين ذهبوا بعد ذلك ؟ »

فتنهد الخادم اسفا وحزنا وقال : « لم يكن للرجل الا ولد واحد ، اخذوه واغرقوه فى النيل ! »

فاجفل السيد عبد الرحمن ، وخارت قواه فجأة ، فجلس متهالكا وقد سقط الطرطور عن راسه ، وانفجر باكيا . والخادم يعجب من أمره ولا يعلم انه انما يبكى ولده الوحيد ، ثم اعتدل فى جلسته متجلدا وسال الخادم : « وماذا صنعت المسكينة أم ذلك الغلام ؟ »

فقال الخادم : « أمر على بك بأخذها الى قصره لتعمل فيه مع الجوارى الخادمات . واحسب أنها ما زالت هناك حتى الآن »

فشعر السيد عبد الرحمن بأن الارض تدور به ، ولم يعد يقوى على الكلام ، فتظاهر بانه رضى بالمبيت فى المنزل وطلب من الخادم ترك الطعام فى الحجرة لياكله متى شاء . فقبل الخادم يده وخرج

وما خلا السيد عبد الرحمن الى نفسه فى الحجرة حتى اطلق لعينيه عنان البكاء ، واخذ يندب ولده وزوجته . وبقى كذلك وقد اغلق باب الحجرة من الداخل ، حتى سمع اذان الفجر ، ففتح باب الحجرة وايقظ الخادم النائم أمامه ، واخبره بانه يريد الخروج للصلاة فى المسجد ، فأوصله حتى الباب الخارجى وفتحه له ، ثم قبل يديه وودعه راجيا ان يتفضل بتشريف المنزل بزيارته من حين لآخر لتحل بركته على من فيه ، فوعده بذلك وانصرف لا يلوى على شيء

وما زال سائرا ووجهته قصر على بك ، فبلغه وقد اشرقت الشمس وانعكست أشعتها على بركة الأزبكية فبدا منظرها بديعا يجذب القلوب والأبصار ، لكنه كان فى شغل عن ذلك بما هو فيه من المصائب والنكبات . وما وقعت عليه أعين حرس القصر وخدمه حتى دعوه اليهم ملتمسين بركته ودعواته ، وحاول بعضهم نفحه ببعض المال ، فرفض اخذه طبقا للخطة التى اتخذها لنفسه . فجاءوه بالطعام راجين منه أن ياكل منه اكراما لخاطرهم . فتناول

قليلا منه . ثم اخذ يتردد اليهم اياما فيجد منهم الاكرام والاحترام ، وهو يتلطف ويحتال لاستطلاع ما تم فى امر زوجته ، حتى علم اخيرا بان على بك امر بان تلحق بولدها غرقا فى النيل ، وان الجنود ساقوها من القصر الى مصر العتيقة ، حيث نفذوا ذلك الأمر ، وكان هذا فى مساء اليوم الذى اغرق فيه ولدها هناك !

□

ضاقت الدنيا كلها فى وجه السيد عبد الرحمن ، بعد ان فشلت آماله وتحقق مصرع ولده وزوجته . ففكر فى الانتحار تخلصا من حياته الشقية المعذبة ، لكن نفسه التقية لم تطاوعه على ارتكاب هذه المعصية . فسلم امره لله ، واعتزم أن يقضى ما بقى من عمره هائما على وجهه ، وهو بملابس المجاذيب ، يسد رمقه بما يجود به عليه الناس من الطعام كلما جاع . وينام فى المكان الذى ينفق وجوده فيه حين يشعر بحاجة الى النوم

وبقى كذلك فى القاهرة أسابيع ، حتى أصبحت شخصيته الجديدة معروفة فى جميع احيائها . وأهلها كلهم يتيمنون بطلعته ويلتمسون بركته ودعواته . والسعيد منهم من يتاح له أن يقدم له طعاما فيتناول قليلا منه ، او يحظى بنومه بالقرب من منزله . اذ انهم علموا بالتجربة انه لا يقبل مالا من احد ، ولا ينام الا فى الطريق !

وكثيرا ما كانت قدماه تقودانه الى شاطىء النيل فى مصر العتيقة ، فيجلس هناك بالقرب من مينائها الذى ترسو فيه المراكب التجارية كما هو الشأن فى ميناء بولاق . فاذا رآه التجار المجتمعون هناك تفاءلوا بوجوده خيرا وتسابقوا الى خدمته التماسا لبركته . وفيهم كثيرون من زملائه فى وكالة الليمون لكنهم كانوا لا يعرفونه لتغير هيئته ولعلمهم بأن زميلهم قد غادر البلاد المصرية كلها فرارا من ظلم المماليك . اما هو فكان يعرفهم وتذكره رؤيتهم ما كان فيه من نعمة سابغة ومكانة تجارية مرموقة . فتتجدد احزانه وتهيج اشجانه . ولا يعزيه الا أن يسرح بصره فى النيل الممد امامه متخيلا

أن زوجته وولده لا يلبثان أن يخرجا اليه من اعماق النهر حيث القى بهما الجنود ، ويقضى الساعات الطوال مناجيا طيفيهما وهو يضحك تارة ويبكى تارة اخرى . ولا يزال كذلك حتى ينال منه التعب فيتمدد على الشاطىء متوسدا طبله محتضنا عصاه ويسلم عينيه للنوم حيث يستأنف تلك المناجاة فيما يراوده من الأحلام !

وفيما هو هناك ذات يوم وقد أخذته سنة من النوم ، اذا به يستيقظ على صوت رجل يناديه قائلا : « يا سيدى الشيخ . يا سيدى الشيخ » . فلما تطلع الى الرجل الذى يناديه وجده مرتديا جلبابا مهلهلا ، وعلى رأسه عمامة ملفوفة حول (لبدة) . وعلى وجهه آثار الجهد والاعياء ، فأدرك انه من اهل الصعيد الذين يعملون فى شحن البضائع ونقلها ، وساله عما يريد ، فقال الرجل : « سألتك بالله يا سيدى أن تقرأ الفاتحة وتدعو الله أن يجمعنى بمن فرق بينى وبينهم »

فتأثر السيد عبد الرحمن بما بدا من اللهفة والأسى فى لهجة الرجل ، وتذكر أنه يشكو مثل شكاته ، فجلس واخذ فى قراءة الفاتحة والدموع تنهمل من عينيه . فتشاءم الرجل وانتظر حتى فرغ من القراءة ثم سأله : « هل على الغائبين من بأس يا سيدى الشيخ ؟ »

وخيل الى السيد عبد الرحمن أن صوت الرجل ليس جديدا عليه ، فمسح دموعه بطرف مرقعته وتفرس فى وجهه فاذا هو على خادمه الخاص . فعجب من ارتدائه ملابس اهل الصعيد ، ومن تغير هيئته الى حد كبير ، وهم بأن يناديه باسمه ، لكنه لم يتمالك عواطفه فانفجر باكيا

وفهم على أن بكاء الشيخ المجذوب دليل على انه إلهم الا امل فى عودة الغائبين الذين خاطبه فى شأنهم ، فلم يتمالك عن البكاء هو الآخر ، وقال له : « لماذا تبكى يا سيدى الشيخ ؟. اذا كنت قد تحققت الا امل فى اجتماعى بمن فقدتهم فأخبرنى »

فأجابه وهو ما زال يبكى قائلا : « ان الموتى لا يعودون يا على » .

ثم نهض وهم به يعانقه وقد ازداد نشيجه وعلا نحيبه . ولما وجده ذاهلا لم يعرفه بعد ، أمسك بيده واجلسه بجانبه وقال : « ألم تعرفني بعد يا على ؟ .. ان حسنا ووالدته قد اغرقا هنا فى هذا النيل »

وهنا تحقق على ان الشيخ المجذوب ليس سوى سيده عبد الرحمن نفسه ، فارتمى عليه واخذ فى تقبيل يديه وكتفيه باكيا معولا وهو يقول : « سيدى عبد الرحمن .. سيدى عبد الرحمن »

فطلب منه الا يرفع صوته لئلا يفطن احد الى امرهما ، ثم نهضا وانطلقا الى مكان منعزل بعد الميناء ، وجلسا يتحادثان ، فروى على أنه سافر الى الريف بأمر سيده حسن ووالدته حيث باع الارض التى كانت لسيده عبد الرحمن هناك ، واستغرق ذلك أسابيع ، وفيما هو فى طريق عودته الى القاهرة للسفر معهما الى عكا طبقا لما تعاهدوا عليه ، علم بأن المماليك اعتقلوهما واستولوا على المنزل وكل ما فيه ، فتنكر فى زى أهل الصعيد وجاء الى القاهرة ليرى ما تم فى أمرهما . وفيما هو خارج من الميناء بعد مغادرته السفينة التى جاء فيها ، سمع التجار والملاحين يتحدثون عن شيخ مجذوب صاحب كرامات مشهورة ، وعلم منهم أن هذا الشيخ موجود بالقرب من الميناء على شاطىء النيل ، فوافاه هناك ليتبرك به ويسأله فى أمر سيده حسن ووالدته لعله يكشف له عما أنتهى اليه أمرهما

فأخبره السيد عبد الرحمن بما كان من اخذهما الى مجلس على بك فى القلعة ، ثم اغراقهما بأمره فى النيل بعد الاهانة والتعذيب ، ثم قال له : « والآن لم يعد يحلو لى العيش بعد ان فقدت أهلى ومالى ، هذا الى انى لا آمن اذا بقيت فى القاهرة أن ينكشف امرى . ولو كنت اعلم الغيب لبقيت فى حملة الحجاز ، او بقيت فى عكا ولم أرجع الى هذه البلاد التى عاث فيها المماليك الفساد ، ولم يتقوا الله فى العباد »

- - - - - - - -

وأمضيا ساعات وهما يتبادلان الحديث ويبكيان ، ثم قال على : « أرى أن نبقى فى القاهرة متنكرين كما نحن الآن ، وما دام كل منا لم

يعرف الآخر أول الأمر ، فلن يستطيع احد من المماليك وأعوانهم كشف حقيقة امرنا ، وهذا هو المال الذى بعت به ارضك التى كانت فى الريف ، فتصرف فيه كما شئت » . قال هذا واخرج من ثيابه صرة فيها ذلك المال ومد بها يده الى سيده . فرفض هذا اخذها وقال : « ما حاجتى الى المال يا على ؟ .. اننى لولا خوف الله لألقيت بنفسى فى قاع النيل لألحق بحسن ووالدته »

فقال على : « معاذ الله يا سيدى ان يرتكب مثلك جريمة الانتحار ، وان قلبى ليحدثنى بأن الله جل شأنه اكرم وارحم من ان يجزيك بغير الخير على تقواك وبرك بعياله الفقراء وصبرك على عنت أولئك الحكام الظالمين . ومن يدرى فلعل سيدى حسنا ووالدته ما زالا على قيد الحياة ، فاننا لم نتحقق قتلهما بعد . فلنصبر ونواصل البحث ، وانى خادمك المطيع لا يمكن ان أتركك لحظة حيثما تتوجه ، سواء ابقيت هنا فى القاهرة ، أم آثرت الرحيل عنها الى أى بلد آخر »

فهم به السيد عبد الرحمن وقبله شاكرا له حسن وفائه واخلاصه ، ثم نهضا وانطلقا الى المدينة فبلغاها وقد آذنت الشمس بالمغيب . وما زالا سائرين حتى بلغا الجامع الأزهر ، فجلسا بالقرب من احد أبوابه ، وتبلغا بما تيسر من الطعام ، ثم تدثر السيد عبد الرحمن بمرقعته وتوسد طبله ، وتمدد على بالقرب منه على الارض ، وما لبثا قليلا حتى راحا فى النوم ، ولم يستيقظا الا على أذان الفجر تنطلق به أصوات المؤذنين من الجامع الأزهر والمساجد القريبة منه ملعلعة فى الفضاء

□

مضى السيد عبد الرحمن وعلى خادمه يتجولان فى الشوارع المحيطة بالأزهر ، وكانت الشمس قد اشرقت منذ ساعة ، لكنهما وجدا الشوارع مقفرة من المارة ، وجميع المتاجر والمنازل فيها مغلقة الابواب ، فقال السيد عبد الرحمن : « لا يمكن ان تقفر

الشوارع من المارة وتغلق أبواب المتاجر والمنازل حتى هذه الساعة الا لأمر خطير ، واكبر ظنى ان الجنود خارجون من القلعة اليوم لسبب من الاسباب »

وما اتم جملته حتى رايا بعض الاهلين قادمين نحوهما مهرولين مذعورين ، فلما وقعت انظارهم على السيد عبد الرحمن وهو فى زى الشيخ المجذوب صاحوا به قائلين : « ادع الله ينقذنا من هذا الكرب » . ثم مضوا فى طريقهم لا يلوون على شىء ، ووجهتهم الجامع الأزهر

فتحقق انهم ذاهبون الى الجامع الازهر للاحتماء فيه من جنود المماليك ، ولم يجد من يساله عن سبب خروج الجنود من القلعة ، فقال لعلى : « يحسن ان نعود الى الازهر نحن ايضا ، لنعلم ممن سبقونا اليه فيم خروج الجنود اليوم »

فوافقه على ، وما كادا يدخلان الجامع حتى وجداه قد امتلأ بمئات من الناس اكثرهم من أصحاب الحرف والباعة والمكاريين ومعهم حميرهم . وعلما ان الجنود خارجون فى حملة جديدة لفتح الشام

وبعد قليل ، اقبل جماعة من الجنود الانكشاريين ، فدخلوا الجامع الازهر واخذوا فى ضرب اللاجئين اليه وسلبهم ما معهم من الأموال والأمتعة والسلع ، ولم يتركوا دابة من دواب المكاريين الا اخذوها مدعين أنهم يحتاجون اليها فى جهادهم . ولبثوا هناك ساعة يعتدون على أولئك المساكين الآمنين ثم انصرفوا ، فأغلق اللاجئون أبواب الأزهر مخافة ان يعودوا او يجىء غيرهم من الجنود فينالهم على أيديهم اعتداء فظيع آخر . ولبثوا هناك خائفين مترقبين حتى غربت الشمس ، وعلموا بأن الجنود غادروا القاهرة فى حملتهم الجديدة ، ففتحوا أبواب الجامع وخرجوا للاطمئنان على متاجرهم ومنازلهم واهلهم . وبقى منهم فى الجامع كثيرون اغلبهم من العلماء والطلاب ومشايخ الطرق . فقال السيد عبد الرحمن لخادمه : « لاداعى لخروجنا فلنبق ليلتنا هنا ، وعند الصباح يفعل الله ما يشاء »

فقال علي : « لقد نطقت بالصواب يا سيدى » . ثم انتحيا ناحية فى صحن الجامع ، وجلسا يتحدثان حتى صليت العشاء ، وجاء جماعة من الفقهاء والطلبة فالتفوا حول السيد عبد الرحمن وراحوا يشكون اليه ظلم المماليك للناس ، ويسألونه أن يدعو الله ان يكشف الضر عن عباده ويأخذ الظالمين بذنوبهم ، فكان يجيبهم بما يدخل الاطمئنان الى قلوبهم ، ويذكرهم بأن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون ، ولكنه يؤخرهم ليوم يأخذهم فيه أخذ عزيز مقتدر

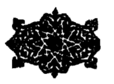
وفى الصباح هم السيد عبد الرحمن وخادمه بالخروج من الازهر فاذا بالسيد المحروقى يدخله فى جماعة كبيرة من العلماء والاشراف . فتذكر السيد عبد الرحمن ما كان من امر توسط صديقه الشريف الكبير لدى على بك للافراج عن ولده حسن ، فلم يتمالك عواطفه وهطلت الدموع من عينيه فعاد الى الجلوس فى الازهر ، معتزما أن يقابل ذلك الصديق على حدة ، وأن يكشف له عن حقيقة امره ، ويستشيره فيما ينبغى أن يصنع بعد أن استولى على بك وجنوده على أمواله واملاكه وقتلوا ولده وزوجته

ولم يمض الا قليل ، ثم اذا بالسيد المحروقى يرسل فى طلبه من تلقاء نفسه . وذلك أن بعض الفقهاء الذين جاءوا معه حدثوه حين رأوا الشيخ المجذوب فى الجامع بما عرفوا من كراماته واحواله ، فرغب فى استطلاع امره بنفسه

فنهض السيد عبد الرحمن ، ومضى الى حيث كان السيد المحروقى جالسا بين أولئك العلماء والاشراف يتشاورون فيما ينبغى اتخاذه لوقف المماليك عن ظلمهم . ولما وصل الى هناك وقف قريبا من مجلسهم بحيث يرونه ، فدعوه الى المجىء اليهم ، ولكنه هز رأسه اشارة الرفض ، ثم اشار بيده الى السيد المحروقى ليخاطبه على حدة ، فنهض هذا من المجلس ، وانتحى به ناحية ، واصغى لما سيقوله فاذا به يقول : « انى لست بشيخ مجذوب ، ولا شأن لى بالانجذاب ، وانما انا صديقك القديم عبد الرحمن التاجر السابق فى وكالة الليمون ، وقد تنكرت فى هذا الزى خوف الظلم والعدوان »

ثم روى له حكايته باختصار والدموع تنهمل من عينيه ، فبكى السيد المحروقى تأثرا ، ثم قال له : « لا تيأس يا صديقى ، فقد علمت ان ولدك لم يقتل ، وان الله قيض له الست نفيسة زوجة على بك فانقذته من المصير الرهيب الذى حكم به عليه زوجها ، وعاونته على الفرار الى سوريا او غيرها من البلاد المجاورة ، اما والدته فعلمت ان على بك أمر باغراقها فى النيل ، ولكننى علمت ايضا بأن الست نفيسة زوجته كانت قد ارسلت فى طلبها قبل ذلك وأحسنت استقبالها ومواساتها ، ولعلها أن تكون قد عملت على انقاذها ايضا »

فتجدد الامل فى صدر السيد عبد الرحمن ، وشكر صديقه السيد المحروقى على هذه المعلومات . ثم حياه وانصرف عائدا الى خادمه على فزف اليه تلك البشرى ، وقررا السفر الى سوريا فى اقرب وقت للبحث عن حسن هناك



رسول من عكا

تركنا حسنا وقد اخذه بعض الجنود المماليك من حرس على بك ، على مشهد من امه فى القلعة ، ليمضوا به الى النيــل ويغرقوه فيه ، تنفيذا لأمر مولاهم

فلما وصلوا به الى مصر العتيقة،استولوا على قارب وجدوه راسيا على الشاطىء هناك قرب الميناء ، وانزلوه فيه وهو يبكى ويتوســل اليهم دون جدوى ، ومعه كيس كبير من الخيش وحجر ثقيل ارغموه على حمله فى الطريق ، لكى يضعوه معه فى الكيس حتى لا يطفو بعــد قذفه فى الماء

وفيما هم يهمون بحل القارب ، لاحت منهــم التفاتة الى احــدى السفن الراسية فى الميناء ، فوجدوا العمال ينزلون منها براميل أدركوا من هيئتهــا انها ملأى بالنبيــذ أو الزبيب ، وزين لهم الشيطان ان يستولوا على شىء مما فيها ليحتسوه فى القارب احتفالا بتنفيــذ امر على بك . ومضى أحدهم لانجاز هذه المهمة ، فلما عاد بعد قليل الى القارب وجد فيه مع زملائه مملوكا من الحرس الخاص بقصر على بك، فظن انهم رأوه اتفاقا هناك فدعوه الى مشاركتهم النزهة والشراب . ثم ركبوا جميعا فى القارب وانطلقوا به فى عرض النيــل ، وما زالوا فى شرب ولهو ، وحسن قابع فى ركن من القارب وقد مل انتظار الموت، وتمنى ان يعجلوا بقذفه فى النيل . الى ان سمع كبيرهم ينهض فجأة ويصدر أمره بالاتجاه نحو الشاطىء الشرقى ، فلم يخالجه شك فى ان لحظة اغراقه قد حانت ، ونطق بالشهادتين ، ثم تجلد وتطلع اليهــم ليريهم انه لا يهاب لقاء الموت ويؤثره على الحياة فى عهد حكمهم الفاسد الظلوم . وشد ما كانت دهشته اذ رآهم منصرفين عنه، الى ما هم

فيه من سكر وضحك وغناء ، ثم ازدادت دهشته حين وصل القارب الى الشاطىء فانزلوه امامهم منه ، ثم ابتسم كبيرهم وقال : « لقد كتب لك عمر جديد . وهذا هو جبل المقطم امامك فعليك ان تدور حوله حتى تبلغ الطريق المؤدى الى سوريا فامض فيه قدما دون ان تلوى على شيء ، واياك ان يشعر بفرارك احد ! »

ولم يصدق حسن سمعه ، بل لم يصدق عينيه حين سارع كبير الجنود على اثر ذلك بفك قيوده واغلاله واعطائه صرة من المال يستعين بها فى رحلته . وبقى واقفا فى ذهول حتى دفعه الرجل بقوة فى الطريق الجبلى الممتد امامه فاندفع يعدو فيه وصوت الرجل يلاحقه وهو يحثه على زيادة العدو ، حتى انقطع الصوت بعد قليل ، فخفف من عدوه والتفت فلم يجد احدا غيره فى تلك المنطقة الجبلية المقفرة وقد زاد فى وحشتها ما سادها من ظلام المساء ، وما اعتمل فى صدره من شتى الهواجس والانفعالات

على انه لم يجد بدا من مواصلة السير ، وما زال يعدو تارة ويمشى الهوينى تارة حتى نال منه الجهد والاعياء ، وسمع نباح كلاب من بعيد ، فخشى ان يتقدم نحوها فيكون هناك خطر عليه . وآثر المكث حيث هو حتى الصباح ، فارتمى على الارض ، وحاول النوم فلم يستطعه لفرط خوفه وقلقه ، وبقى كذلك حتى لاح ضوء الفجر فنهض واستانف سيره حتى مر عند الظهر بمضارب لبعض الاعراب، فعرج عليها وحصل على حاجته من الماء والطعام ، كما حصل على ثياب عربية استبدل بها ثيابه للتنكر ، ثم مضى فى طريقه حتى وجد اعرابيين يقودان جملين ، وعلم منهما انهما فى طريقهما الى الصالحية ليصحبا من هناك قافلة ذاهبة الى سوريا ، فانضم اليهما وهو يحمد الله على هذا التوفيق ، لانه كان يخشى السير منفردا ، فضلا عن انه لا يعرف الطريق

وفى الصالحية ، اشترى لنفسه جملا وما يحتاج اليه من الزاد خلال الرحلة ، ثم انضم الى القافلة ، وقد اطمان الى النجاة . ولكن القافلة ما كادت تخرج من البلدة حتى دهمها جماعة من فرسان المماليك،

فاستولوا على ما فيها من الجمال والاحمال بحجة ان على بك يحتاج اليها فيما هو قائم به من الجهاد. وعبثا حاول التجار ان يثنوا العساكر عن هذا الامر ، اذ هددهم هؤلاء بالقتل ، واضطروهم الى العودة الى الصالحية تمهيدا لارسالهم الى القاهرة

□

كان هم حسن بعد ان راى ما حل بالقافلة ان ينجو بنفسه حتى لا يعود الى القاهرة فينكشف امره هناك . فانتهز فرصة اشتغال الفرسان المماليك باحصاء السلع التى كان التجار فى القافلة ذاهبين بها الى الشام ، وترك جمله بما عليه واختبأ وراء اكمة هناك حتى انتهى الفرسان من احصاء تلك السلع وساقوا القافلة عائدين بها الى الصالحية . فلما ابتعدوا نهض من مخبئه ومشى فى طريق الشام الذى كانت القافلة سائرة فيه

وما زال يجد فى سيره وليس معه سلاح ولا طعام ولا ماء حتى ولى النهار وبدأ الظلام ينشر جناحيه على الصحراء الممتدة امامه . وكانت قواه قد خارت من فرط ما عاناه من الخوف والاضطراب مع العطش والجوع . فجلس على اكمة من الرمل ونظر الى ما حوله فلم يجد سوى الرمال ينطبق عليها الافق من جميع الجهات ، فازداد قلقه وندم على مسيره وحده ، وتذكر ما اضطره الى ركوب هذا المركب الوعر ، وما لحق بأسرته من الظلم والاهانة والتشريد والتعذيب ، فاخذ يندب حظه مجهشا فى البكاء

ولما اشتد الظلام ، ازداد شعوره بالخطر المحدق به ، حتى نسى عطشه وجوعه ، وخيل اليه ان ما حوله من السهول التى سادها الظلام والسكون قد امتلأت بوحوش كاسرة قادمة لافتراسه ، فاقشعر بدنه واخذته الرعدة وتسارعت دقات قلبه ، وحاول النهوض فلم تقو ساقاه على حمله ، فتمدد فى مكانه ، واخذ يتلو ما تيسر من آيات القرآن ويبتهل الى الله ان يقيه السوء ، ويبعد عنه الهواجس

وفيما هو كذلك ، وصل الى اذنه الملتصقة بالارض صدى وقع اقدام مسرعة ، فهب من مرقده مذعورا ، وتلفت الى مصدر الصوت ممعنا النظر على ضوء النجوم ، فلاح له شبح قادم من بعيد،وما لبث الشبح ان اقترب منه فاذا هو هجين مسرع فوقه راكب لم يتبين هيئته . ثم لاح له بضعة اشباح اخرى مماثلة كانها تطارد ذلك الهجان

وما هى الا لحظة حتى كان الجميع عند سفح الأكمة التى يجلس فوقها حسن،وتبين ان هؤلاء المطاردين يرتدون ملابس الأعراب فأدرك انهم من اللصوص قاطعى الطريق ، ثم تحقق هذا اذ سمع احدهم يصيح بهم قائلا بعد أن لحقوا بالهجان الأول : « هيا لقد وقع الكلب فاقتلوه واستولوا على ما معه ! » . فانبطح على الأرض وعيناه تحملقان فى اتجاه المعركة ليرى ما تنتهى اليه ، وقلبه يخفق خوفا من ان يشعر بوجوده احد اللصوص

ولم يطل انتظاره ، فان الهجان الأول ما لبث أن سقط عن ظهر هجينه ، فهم به مطاردوه واستولوا على سلاحه وملابسه ما عدا القميص والسروال ، ثم تركوه ممددا على الأرض وساقوا هجينه امامهم بما عليه من أمتعة وغيرها وعادوا من حيث اتوا ، وحسن يتابعهم بنظراته حتى ابتعدوا وابتلعهم الظلام . وهنا نهض من مخبئه وهو يحمد الله على نجاته ، وهم بالابتعاد عن هذا المكان الذى قتل اللصوص فريستهم فيه ، لكنه سمع أنينا صادرا من جهته فعلم انه ما زال فيه رمق من الحياة ، وتحركت فى نفسه عاطفة الشفقة ولاسيما بعد أن تصور انه كان معرضا لمثل ذلك المصير ، فزايله خوفه وسارع الى المصاب المحتضر ، لعله أن يخفف عنه آلام الاحتضار ، أو يعلم من هم أهله فيعمل على ابلاغهم وصيته ان أراد ان يوصى اليهم بشىء

ولما وصل اليه ، وجده قد كف عن الأنين فظن أنه مات،ولم يتمالك عواطفه فبكى تأثرا بمصرع الرجل بعيدا عن اهله فى ذلك القفر الموحش ، ومال على جثمانه يفحصه ليتحقق موته قبل أن يواريه التراب كما قرر بينه وبين نفسه . وشد ما كان اغتباطه اذ وجد ان الرجل ما زال حيا ، لكنه مصاب بجرح فى راسه يسيل منه الدم ،

فسارع الى اخـراج منديله وأخذ يمسح ذلك الدم ، ثم عصـب له راسه ، وأخذ يحرك جسمه ويربت وجهه حتى افاق من غشيته وتحرك وعاد الى الانين ، فاستمر فى تنبيهه ومواساته سائلا اياه عن موضع المه . وما زال كذلك حتى استطاع الرجل ان يتـكلم وعـلم منه انه يشـكو من الألم فى ساقه ، فقال له : « لا باس عليك يا اخى ولسوف تشفى عاجلا باذن الله »

ثم حل حسن عمامته،وبحث عن خشبة ليجبر له ساقه بها،فوجد فى مكان المعركة عصا مكسورة ، وسرعان ما أخذ منها ثلاث قطع جعلها حول ساقه المكسورة متوازية ولف العمامة عليها لفا محكما ، وكان قد تعلم صنعة التجبـير فى البيمارسـتان المنصورى . ثم امسك بيد المصاب وأجلسه برفق مسندا راسه على صدره ، وراح يشجعـه ويطمئنه على نفسه ، والرجل يعجب لصنيعه ويتمتم بشكره وهو ما زال بين الغيبوبة والصحو

واشرقت شمس اليوم التالى ، وحسن مستمر فى اسـعاف الرجل والترفيه عنه بالعبارات الرقيقة ، وقد استـانس به وان يكن جريحا ، واعتزم الا يفارقه حتى يطمئن الى نجاته

وبعد قليل استطـاع الرجل ان يسترد بعض قـواه ، ونظر الى حسن فى ضوء النهار والى الجبيرة التى صنعها له ،فاطمأن اليه وذهب عنه الروع ،وهمس وعيناه تدمعان تأثرا بما رأى من مروءته وأريحيته قائلا له : « جزاك الله عنى خيرا يا سيدى ، انى مدين لك بحياتى »

فقال له حسن : « اننى ما قمت لك الا بأقل ما يجب على ، وانت الآن فى حاجة الى الراحة ، وثق باننى لن اتركك حتى تبلغ مأمنك ان شاء الله »

ثم نهض حسن وبحث فيما حولهما من السهل حتى وجد موضعا مستويا عند سفح أكمة قريبة ، فحمل صاحبه الى هناك وفرش له عباءته وارقده عليها ، وأشار عليه بأن يستريح قليلا ريثما يجـد وسيلة ينقله بها الى الصالحية ، فقال الرجـل : « لن انسى فضلك ما حييت ، وان اسمى عماد الدين ، وقد جئت من عكا حاملا رسالة

من حاكمها الشيخ ضاهر الزيدانى الى على بك حاكم الديار المصرية ، والحمد لله على ان هذه الرسالة بقيت معى ولم يستول عليها اللصوص الذين سلبونى مطيتى وسلاحى وامتعتى وما كان معى من مال . فهل لى أن اتشرف بمعرفة اسم سيدى ، وكيف ساقك الله لانقاذى من الموت فى هذا القفر بالليل ؟ »

فقال : « انى من اهل مصر واسمى حسن،وكنت عازما على السفر الى عكا فى مهمة خاصة ، فخرج على لصوص آخرون كثيرون واستولوا على راحلتى وامتعتى ، ولم أنج بحياتى من بين أيديهم الا بمعجزة . وكأنما نجانى الله لكي اشهد ما وقع لك هنا ، واسارع الى اسعافك بالعلاج عقب انصراف المعتدين الآثمين . فنحن اذن شريكان فى الغربة والبأساء ، ولكن لا بأس عليك ان شاء الله »

فعجب عماد الدين من امر ذلك الاتفاق الغريب ، وقال له : « هذه ارادة الله ، وانه ليسعدنى ان القاك فى عكا لعلى استطيع أن ارد لك هناك بعض جميلك . واكون أكثر سعادة اذا لم يكن لديك ما يمنع ذهابنا اليها معا ، بعد أن نمضى الى القاهرة واؤدى الرسالة الى على بك »

فسكت حسن ولم يدر بم يجيب ، اذ تذكر ما أصابه واسرته على يد على بك ، فهاجت احزانه ولم يستطع اخفاء الدموع التى تسابقت تجرى على خديه

ولم يخف ما به على عماد الدين،فاشتد عجبه وسأله : «أهذه أول مرة قصدت فيها الى عكا ام لك معرفة بها من قبل ؟ »

وكان حسن فى هذه اللحظة يفكر فى أبيه ، وفيما وعده وأمه به من انه سينتظرهما فى عكا ، فتلاحقت دموعه على غير ارادة منه ، ثم تجلد ولاح له أن عماد الدين قد يكون لديه نبأ عن أبيه ، فقال له : « الواقع اننى كنت قاصدا عكا لأول مرة ، وقد سبقنى اليها أبى ، وتواعدنا على أن الحق به »

قال : « وكيف تذهب وحدك فى طريق لا تعرفه ؟ »

فسكت حسن حائرا ، وخاف ان يكشف حقيقة امره فيقع فى

مصيبة أخرى ، وزاد هذا فى شوق عماد الدين الى استطلاع الأمر ، فقال له : « اننى صرت لك أخا بل خادما منذ انقذت حياتى ، ولاشك ان ما يهمنى يهمك ، ولعلى أوفق الى القيام لك بخدمة »

ولم يجد حسن بدا من النزول على رغبة الجريح الصديق ، فتنهد وقال له « ان حكايتى يبكى لها الصخر الأصم ! » . ثم رواها له من اولها الى آخرها

فتأثر عماد الدين كل التأثر وقال له : « حقا ان حكايتك تدعو الى الأسى والأسف ، ولكن لا حيلة فيما وقع ، اللهم الا الصبر ، فاصبر وكن على يقين من أن الله سيثيبك على صبرك ، ولك على عهد الله وميثاقه لأكونن فى خدمتك ما حييت »

فشكره حسن ، وتفقد جروحه فوجد ألا خطر منها ، كما علم منه انه ارتاح قليلا من الآلام التى كان يشعر بها فى ساقه . فحمد الله على ذلك ، وبشره بعاجل الشفاء . وما زال يسامره بالأحاديث والأمانى حتى لاح لهما جمل قادم من بعيد وفوقه راكب بملابس الأعراب ، فاستعاذ عماد الدين بالله من أن يكون القادم لصا قاطع طريق ، وبدا عليه الاضطراب،فابتسم حسن فى وجهه مطمئنا وقال له : « ان الذى نجانا فيما مضى قادر على أن ينجينا فيما هو آت » . ثم نهض وصعد الى الأكمة التى كان جالسا عليها بالأمس ، ثم خلع ثوبه وأخذ يلوح به فى الهواء ليراه الجمال القادم

وبعد قليل كان الجمال قد رأى الثوب الملوح به فحول عنان جمله الى جهته وما زال يحثه حتى وصل اليهما فترجل وسلم ثم سألهما : « ما خطبكما أيها الصديقان ؟ »

فاطمأن كل منهما لحسن لهجته وأدبه ، وقال له حسن : « اننا من القاهرة وكنا فى عكا نحمل الى حاكمها رسالة من على بك حاكم مصر ، وفى عودتنا من عكا قطع علينا الطريق هنا بعض لصوص البدو ، واعتدوا على أخى هذا وجرحوه ، فاذا تفضلت بنقله على جملك الى أقرب قرية من هنا ، كنا لك من الشاكرين »

فقال الأعرابى : « انى رهن أمركما ، ومنزلى غير بعيد من هنا . فأنا

احق بشرف الضيافة » . ثم أقترب من عمــاد الدين وتأمل الضماد على راسه والجبــيرة على ساقه ، وقال متعجبــا : « ان مثل هــذه الاسعافات لا يحذقها الا طبيب »

فاجمر وجه حسن خجلا ، وبادر عمــاد الدين الى الاجابة قائلا : «من فضل الله ونعمته أن أخى درس الطب فى البيمارستانالمنصورى على يد طبيب مغربى كبير »

فالتفت الأعرابى الى حسن وهش فى وجهه وقال : « الحمد لله . نحن اذن اهل واخوان ، فان جدى رحمــه الله كان طبيبا ومغربيــا أيضا » . ثم أناخ الجمل وتعاون مع حسن على حمل عماد الدين الى متنه وشداه الى الرحل مستلقيا على ظهره . ثم عاد ثلاثتهم الى قرية الأعرابى ، فبلغوها بعد ساعات ، ونزل حسن وعمــاد الدين بمنزل الرجل ضــيفين مكرمين الى ان التأم جرح عمــاد الدين ، والتأمت عظمة ساقه المكسورة أو كادت بفضل العــلاج الذى قام حسن به ، فاستأذنه عماد الدين فى أن يركب هجينا يذهب عليها الى القاهرة فيؤدي الرسالة الى على بك ثم يعود اليه بعد ستة أيام على الأكثر ، فاستحسن الفكرة ، وودعه والأعرابى مضيفهما سائلين له السلامة فى الذهاب والاياب

امضى حسن الايام الستة الأولىبعد ذهاب عماد الدين الى القاهرة، يغالب الهواجس وتغالبه ، فلما كان اليوم السابع أخذ ينتظــر عودته منــذ طلعت الشمس حتى غروبهــا ، فلما لم يعد فى موعده ، قلق وتعاظمت هواجســه وظنونه ومخاوفه ، وعبثا حاول مضيفهما الأعرابى تخفيف قلقه ، فلم يتناول فى العشاء الا لقيمات رغم انه لم يتناول أى طعام طول النهار . ثم جفا النوم عينيه طول ليلته . فلما أصبح تجدد امله فى عودة عماد الدين ، وبقى ينتظره عند مدخل القرية نهاره كله وجانبا من الليل ، لكنه لم يات أيضا . فيئس حسن وخاف أن يكون صاحبه قد وقع مرة أخرى فى أيدى قاطعى الطريق فأعدموه . وقرر ان ينهض عند الفجر فيمضى الى القاهرة متنكرا ليقتفى أثر عماد الدين ويقف على جلية أمره ، وافضى بما اعتزمه الى صاحب المنزل ،

فوافقه وأعد هجينا خفيفة ليستقلها . وجلس معه بعد العشاء ليسامره كعادته ثم يودعه

وفيما هما في ذلك ، اقبل عماد الدين ، فتعانقوا وتصافحوا وكان اغتباطهم جميعا باللقاء عظيما

ثم روى عماد الدين ما اخره فقال : « لقد علمت حين وصولى الى القاهرة أن على بك غادرها فى حملة الى الصعيد لمحاربة قبيلة الشيخ همام ، فاضطررت الى انتظاره حتى رجع واديت اليه الرسالة ،فاكرم وفادتى وغمرنى بالعطايا والهبات ، ثم حملنى رسالتين : احداهما للشيخ ضاهر حاكم عكا ردا على رسالته ، والأخرى لأسلمها للأميرال لسمبيكو قائد الأسطول الروسى الموجود الآن فى ميناء الأسكندرية . وذلك لظن على بك أننى سأعود من طريق البحر اذ هو أقرب . وقد رايت ان آتى اليك أولا حتى لاتقلق ، ولكى أعرض عليك أن نسافر الى عكا بحرا من الأسكندرية ، فالطريق البحرى أكثر امنا . فما قولك ؟ »

فوافق حسن على ذلك الاقتراح ، حبا فى صحبة عماد الدين ، وتفاديا لخطر اللصوص فى الطريق الصحراوى ولتأخره عن الموعد المضروب للقائه بأبيه هناك



فى الاسكندرية

كان عماد الدين قد جاء معه من القاهرة بالعطايا والهبات التى نفحه بها على بك . فنزل للأعرابى مضيفهما عن بعضها ردا لجميله ، ثم اشترى هجينتين ركب احداهما وركب حسن الاخرى ، وبيا زالا يجدان السير فى الحوف الشرقى حتى اتيا الفرع الشرقى للنيـل ، فقطعاه الى الدلتا فالفرع الغربى للنيل وما وراءه حتى وصلا الى الاسكندرية اخيرا ، فباعا الهجينين لبعض الاعراب هناك ، ثم نزلا بفندق قرب الميناء ، على أن يبيتا فيه ليلتهما ، فاذا أصبحا مضيا الى الميناء وزارا الاسطول الروسى لتسليمه رسالة على بك ، ثم بحثا عن سفينة ذاهبة الى الشام فركباها الى عكا

ولم تكن الاسكندرية فى ذلك الحين سوى مدينة صغيرة ، اهم ما فيها أنها على البحر ، وأن فيها مرفأين : أحدهما للمسلمين وتقف فيه السفن العثمانية والمصرية ، وموضعه المكان المعروف برأس التين ، والآخر للنصارى فى الموضع المعروف بالمينا القديمة . فلمـا كان صباح اليوم التالى مضى عماد الدين وحسن الى الميناء الجديد حيث قيل لهما ان الاسطول الروسى فيه ، فلم يجدا هناك اية سفينة ، وعلما بأن هياج البحر بسبب النوء الشديد اضطر السفن الى الابتعاد الى عرض البحر خوفا من الغرق فى الميناء ، ولا سيما أن سفنا كثيرة تحطمت وغرقت فيه منذ ايام . وسألا : متى ينتظر ان يهدأ البحر وتعود سفن الاسطول الى الميناء ، فقيل لهما : « ان هذا لا ينتظر قبل يومين » . فعادا الى الفندق آسفين . وأمضيا يومهما فى تفقد المدينة . وفى صباح اليوم التالى رأى عماد الدين أن يترك حسنا فى الفندق قليلا ريثما يمضى هو الى الميناء للسؤال عن

الاسطول . وفيما هو واقف هناك يتطلع الى سفن الاسطول الراسية فى عرض البحر ، وهو يرتدى الملابس السورية المؤلفة من القباء (القفطان) الحريرى وفوقه الجبة ، وعلى راسه الكوفية والعقال ، وفى يده غليون طويل يدخن فيه التبغ . دنا منه بحار من الاسكندرية يرتدى السروال الفضفاض المشدود على الساقين ، وعلى راسه عمامة ارسل طرفها على قفاه ، وسأله قائلا : « اراك تكثر من التطلع الى سفن المسكوف ، فهل يهمك الوصول اليها ؟ »

فقال عماد الدين : « ان معى رسالة اريد تسليمها الى اميرال الاسطول »

قال : « وممن هذه الرسالة ؟ » . فقال : « من على بك الكبير »

فبغت البحار ، وتأدب فى وقفته بعد ان كان يكلم عماد الدين ويداه خلف ظهره وغليونه فى فمه ، وقال له : « اذا كان ابلاغ الرسالة لا يحتمل التأجيل الى غد فانى على استعداد لابلاغها الآن ! »

فعجب عماد الدين وقال : « وكيف تستطيع ذلك والبحر ما زال هائجا كما ترى ؟ »

قال : « ان امواج البحر تعرفنى وتعرف قاربى ، فلست اخافها مهما تكن غاضبة ثائرة ، ولكنى لا اذهب فى هذه المهمة الا اذا نقدتنى عليها كيسا كاملا (خمسمائة قرش) .! »

فضحك عماد الدين وقال : « كيس كامل ؟ .. هل حسبت اننى على بك نفسه حتى استطيع دفع هذا الاجر » . قال هذا وغادر الميناء عائدا الى الفندق مؤثرا الانتظار حتى اليوم التالى . ودخل الغرفة التى ترك حسنا فيها فلم يجده هناك ، وعلم انه خرج منذ قليل . فقال فى نفسه : « لعله استبطأ عودتى فخرج ليروح عن نفسه عناء الانتظار بالتنزه على شاطىء البحر » . ولبث ينتظره فى الفندق حتى حان موعد الغداء دون أن يرجع ، فأوجس خيفة عليه لعلمه بحكايته وبانه لا يعرف احدا فى المدينة ، وخرج يبحث

عنه هنا وهناك ، فلما لم يجده بعد ساعات من البحث ، عاد الى الفندق لعله سبقه اليه من طريق آخر . فعلم انه لم يات اليه بعد ، وخاطب فى شأنه صاحب الفندق فقال له هذا : « لا خوف عليه الا أن يكون قد سار الى جهة قلعة راس التين ، لان فيها بعض الجنود المماليك والانكشارية وهم لا يتورعون عن انزال الأذى بأى انسان ، بل لا يتورعون عن القتل اذا كان لهم من ورائه نفع بسيط ! »

□

انتظر عماد الدين فى الفندق على نار حتى صباح اليوم التالى ، ثم خرج من الفندق قاصدا الى الجمارك لمقابلة مديرها وطلب مساعدته فى البحث عن حسن . وكان صاحب الفندق هو الذى أشار عليه بذلك ، لان مدير الجمارك يومئذ شامي مثله واسمه انطون فرعون ، ولا يقل نفوذه عن نفوذ أعظم الأمراء ، ولا سيما انه فضلا عن كبر منصبه ذو ثروة طائلة ، وقصره الفخم الجميل على الشاطىء لا يخلو من الحفلات التى يدعو اليها الكبراء من الأجانب والوطنيين

فلما وصل الى ادارة الجمارك ، علم أن المدير لم يحضر بعد فوقف ينتظر قدومه هناك ، وبعد ساعة راى موظفى الادارة وعمالها فى هرج ومرج ، ثم اصطف اكثرهم عند مدخلها ووقفوا متأدبين ، فعلم ان المدير قادم ، وانتظم فى جملة المستقبلين . وما لبث المدير أن أقبل فى زى فخم تحفه الهيبة والأبهة والوقار ، فهم كبار الموظفين بتقبيل يده ، ففعل عماد الدين مثلهم ، ثم تبعه حتى بلغ حجرته الخاصة وهم بدخولها فناداه عماد الدين بلهجته الشامية قائلا : « سيدى المدير .. سيدى المدير » . فالتفت اليه وسأله : « ما حاجتك ؟ » . فقال : « أرجو ان يتنازل السيد بدقيقة أروى له فيها ما دفعنى الى المجىء هنا »

فأشار اليه بأن يتبعه الى الحجرة ، واذن له فى الجلوس وطلب له قهوة ، ثم لم يكد يسمع حكايته عن فقد زميله وخوفه أن يكون الانكشارية قد نالوه بسوء ، حتى طمأنه وقال له : « هذه مسألة

بسيطة ، وسأرسل الآن نائبى الى قلعة رأس التين فاذا كان الجنود الذين فيها قد اعتقلوا صاحبك طمعا فى ماله او فى أن يفتديه أهله بالمال ، اخرجه النائب من السجن وجاءنا به معززا مكرما »

فوقف عماد الدين وقبل يد المدير قائلا : « جزاك الله أحسن الجزاء . وهكذا المروءة والشهامة »

فقال : « هذا اقل ما يجب » . ثم صفق ، فلما جاء الحاجب امره بأن يبلغ النائب امره بالذهاب الى قلعة رأس التين والسؤال عن شاب اسمه حسن يظن أن الجنود اعتقلوه هناك ، فاذا وجده ابلغ الأغا رئيس الجنود أنه من أتباعه ، وجاء به »

فحنى الحاجب راسه سمعا وطاعة وانصرف . والتفت المدير الى عماد الدين وسأله : « كيف حال الشام الآن ، وهل الشيخ ضاهر الزيدانى ما زال حاكما فى عكا ؟ »

قال : « نعم يا سيدى ، وهو الآن بسبيل الاستيلاء على بلاد الشام كلها »

فهز المدير راسه عجبا وقال : « ما شاء الله !.. الشيخ ضاهر يحكم بلاد الشام كلها ؟.. هل تعرف تاريخه جيدا ؟ »

فقال عماد الدين : « سيادتكم أدرى »

قال : « لقد أخبرنى ابى بأنه عرفه منذ كان غلاما يعيش مع ابيه الشيخ عمر الزيدانى وقبيلته البدوية فى جهة بحيرة طبرية ، ولما توفى أبوه آلت اليه رياسة القبيلة ، وحاربه أولاد العظم حكام دمشق لما رأوه يحاول توسيع سلطانه لكنهم لم يستطيعوا قهره ، واخذ فى التجارة مستعينا باعوانه الكثيرين من البدو ، فجمع ثروة كبيرة ، وما لبث أن استولى على عكا وانتزعها بلا حرب سنة ١٧٤٩ من يد الاغا الذى كان يحكمها باسم والى صيدا ، ثم حصنها وبنى له شمالها قصرا أشبه بالحصن ، ولم تجد الدولة العلية بعد ذلك بدا من منحه سنة ١٧٦٨ لقب (شيخ عكا وأمير امراء طائفة المتاولة وقومندان الناصرة وطبرية وصفد وشيخ الجليل) . ولم أعد أسمع عنه شيئا منذ ذلك الحين »

فقال عماد الدين : « انه فتح مدينة صيدا ، واقام عليها واليا اسمه (الدنكرلى) . ولما نشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا انحاز الى الروسيين متحدا فى ذلك مع على بك هنا فى مصر ، ولا يخفى عليكم ان الاسطول الروسى فى ميناء الاسكندرية الآن . ولست اخفى عليكم انى جئت من عكا برسالة من الشيخ ضاهر الى على بك ، وقد كلفنى هذا حين قابلته فى القاهرة منذ ايام حمل رسالة منه الى اميرال الاسطول الروسى هنا »

فقال المدير : « يلوح لى من هيئتك ولهجتك فى الحديث انك من الدروز اللبنانيين ، فما الذى ادخلك خدمة الشيخ ضاهر ؟ »

قال : « ان اسرتى ملت كثرة المنازعات بين الامراء الشهابيين حكام لبنان ، فانضمت كغيرها الى الشيخ ضاهر »

وما زالا فى مثل هذا الحديث حتى عاد النائب ومعه حسن ، فنهض عماد الدين وقبل يد المدير ، وكذلك فعل حسن ، ثم استاذنا فى الانصراف شاكرين ، فاذن لهما وانصرفا

▭

سار حسن مع عماد الدين الى الفندق ، وقص حسن فى الطريق قصة اعتقال المماليك اياه ، ذاكرا انهم استولوا على كل ما كان يحمله من النقود وطمعوا فى المزيد فسالوه عن اهله ليرسلوا اليهم كى يفتدوه من السجن ، فلما اخبرهم بالا اهل له فى الاسكندرية ولا فى غيرها من الديار المصرية لم يصدقوه ، وابقوه فى السجن حتى يرشد عن اهله وهددوه بالقتل ان لم يفعل . فلبث فى السجن خائفا يترقب حتى جاء نائب مدير الجمارك وخاطب الاغا فى شانه فافرج عنه فى الحال

وباتا ليلتهما فى الفندق ، ثم سارا الى الميناء فى الصباح فوجدا السفن الروسية قد عادت اليه ، فاكترى عماد الدين قاربا اوصله الى سفينة الاميرال حيث سلمه رسالة على بك . ثم عاد الى حسن واخذا فى البحث عن سفينة ذاهبة الى السواحل السورية الى ان

وجدا سفينة تجارية كبيرة تعتزم الذهاب فى الغد الى بيروت راسا ، فحجزا لهما مكانا فيها . على أن يقطعا المسافة القريبة من بيروت الى عكا برا . ثم عادا الى الفندق فأعدا أمتعتهما للسفر ، وما أشرقت شمس اليوم التالى حتى كانا فى السفينة وهى تمخر عباب البحر ناشرة اشرعتها . ومرت قبل مغادرتها المياه المصرية بميناء دمياط فحملت منه مقادير كبيرة من الارز ، ثم استأنفت رحلتها قاصدة الى بيروت فأشرفت عليها بعد بضعة أيام .



فى جبل لبنان

اعجب حسن حين اشرفت السفينة على بيروت بسلسلة جبال لبنان الشامخة المكسوة بالثلوج والاشجار ، ولاحظ أن مدينة بيروت تحيط بها تلال مرتفعة عنها فقال لعماد الدين : « ان هذه التلال المرتفعة خطر على المدينة ، اذ يستفيد بها العدو الذى يغزوها برا ويتسلط عليها بسهولة »

فقال عماد الدين : « صدقت يا اخى ، ولكن المدينة بها عدا القلاع البحرية ــ كقلعة الميناء الداخلة فى البحر ، وقلعة الخارجية ، وقلعة شبويخ ــ برج هائل شرقيها هو هذا الذى يبدو أعلى ابراجها جميعا ، ويقال له (برج الكشاف) . وهو يشرف على كل الجهات ، وبجانبه برج آخر صغير ليست له اهمية كبيرة . كما ان بها من الغرب برجين كبيرين هما : برج أم دبوس ، وبرج طاقة القصر . وكان للمدينة فيما مضى سور تهدم بمضى الزمن ، لكن أبوابه ما زالت سليمة وفيها مراكز دفاعية لا بأس بها »

ولمح حسن غربى المدينة تلا مرتفعا داخلا فى البحر وعليه الاشجار والزروع ، ووراءه سهل ممتد من الرمال . فلما سأل عنه عماد الدين أجابه هذا بقوله : « هذا راس بيروت وهو يمتد الى مدينة صيدا » . ثم اشار الى تل فى الجهة الشرقية وقال له : « وهذا تل الأشرفية ، وهو اكثر اغراسا ، وليس وراءه الا الجبل كما ترى »

فأشار حسن الى ابراج متفرقة بين البساتين والغياض على رأس بيروت وتل الأشرفية وقال : « أليست هذه الابراج للدفاع أيضا ؟ »

فقال عماد الدين : « انها ابراج ، لـكنها للسكنى وليست للدفاع ، وقد بناها بعض الامراء والاعيان فى عهود متفرقة ليسكنوها فى فصل الشتاء ، وقلما يسكنها غير القادرين لوقوعها خارج المدينة وتعرضها للغزو وسطو اللصوص وقاطعى الطريق

وكانت السفينة قد ألقت مراسيها ، فغادراها الى المدينة حيث طافا ببعض أسواقها الضيقة ، وأعجب حسن برصف شوارعها ونظافتها . وبعد أن وضعا امتعتهما فى فندق قرب سوق الحدادين ، اخذ عماد الدين حسنا وأراه قيسارية الامير منصور حاكم لبنان السابق وغيرها من القيساريات

فقال حسن : « هل الشيخ ضاهر هو حاكم بيروت الآن ؟ »

فقال عماد الدين : « لا . بل هى تابعة للأمير يوسف شهاب الدين . ومثلها طرابلس وصيدا وصور . على أن الامير يوسف والشيخ ضاهر متفقان فى الخفاء على محالفة الروسيين . ومما يذكر أن والى المدينة الذى يحكمها باسم الأمير يوسف الآن هو أحمد بك الجزار الذى كان فيما مضى من امراء على بك فى مصر ، ثم وقع بينهما نفور ، ففر الى الاستانة خوفا على حياته من على بك ، ثم جاء الى هذه البلاد فرتب له الامير منصور نفقة من جمرك بيروت . وبقى كذلك حتى جاء الاسطول الروسى الذى رأيناه فى الاسكندرية فخرب المدينة وهدم اسوارها ، ونهب جنوده متاجرها ومنازلها بتحريض من الشيخ ضاهر طمعا فى اخضاع الامراء الشهابيين لسلطانه أيضا ، وظلوا يحاصرونها حتى بعث الامير منصور الى الشيخ ضاهر يوسطه لدى الروسيين فى فك الحصار عنها فى مقابل أن يدفع لهم مبلغا كبيرا من المال ، فتم الصلح بينهم على ذلك . ثم جاء الامير يوسف فولى الجزار على بيروت . وأحسب أن هذا لا يلبث قليلا حتى يخرج عليه ، فقد تركته حين سافرت من عكا والامير متغير عليه لما بلغه من انه يبنى الحصون ويعد معدات الدفاع فى المدينة ويسخر الناس فى تلك الاعمال »

فقال حسن : « أسأل الله الا تنشب الحرب بينهما ونحن هنا ،

ويا حبذا لو نعجل بالرحيل الى عكا لتفادى الاخطار ، ولـكى ابحث عن ابى هناك »

فوافقه عماد الدين على ذلك ، ثم انطلقا عائدين الى الفندق ، وفى الطريق تفرج حسن على الغياض المحدقة بالمدينة من الجنوب وفيها اغراس التين والمشمش واللوز وغيرها ، وعلى باب الدركاه ، وبرج الـكشـاف ، وباب المصلى المؤدى الى قصر الحـكومة حيث يقيم احمد بك الجزار . فلما اقتربا من القصر قال عماد الدين : « يحسن ان نعجل بالابتعاد عن هذه المنطقة فان الجزار قد يأمر بقتلنا لادنى شبهة تخالجه فى امرنا ، وقد اسرف فى سفك الدماء حتى صـار له من اسمه اكبر نصيب ، وتروى عنه فى ذلك احاديث تقشعر لها جلود الأسود . اذكر منها أنه داعب احدى سراريه مرة بقطع أذنها بخنجره !. وما احسبه ان علم بأنى من رجال الشيخ ضاهر الا معجلا بالفتك بى »

ثم جدا فى السير حتى وصلا الى الخان ودخلا غرفتهما حيث اخذا يعدان امتعتهما للرحيل . وبعد ان استراحا قليلا قال عماد الدين : « سأذهب الى صاحب الفندق لأخبره باعتزامنا السـفر ، واستعين به على اكتراء جملين أو جوادين نركبهما الى عكا »

فقال حسن : « حسنا تفعل ، واسأل الله التوفيق »

وطال انتظار حسن رجوع عماد الدين من هذه المهمة ، فقلق وغادر الغرفة قاصدا الى غرفة صاحب الفندق ليبحث عن عماد الدين هناك ، فوجدهما جالسين على دكة فيها يتهامسان ، وما وقع نظر عماد الدين عليه حتى ناداه واشركه معهما فى الحديث ، فاذا بصاحب الفندق يقول : « ما اظن ان الخروج من المدينة ممكن فى هذه الايام ، فالأحوال مضطربة ، والامير يوسف فى طريقه الينا على راس حملة قوية من جنوده لتأديب احمد بك الجزار . وقد امر هذا باغلاق ابواب المدينة ومنع الدخول اليها والخروج منها »

فبغت حسن ، وانقبضت نفسه ، وبدت على محياه علائم التذمر والاستياء ، فقال له صاحب الفندق : « لا تتذمر يا بنى ، واحمد

الله على انكما لم تحاولا الخروج من المدينة قبل علمكما بهذا النبأ الخطير » . ثم ناوله غليونه وفيه تبغ مشتعل ، وقال له : « ان الامر لله يفعل ما يشاء ، وهذه الدنيا لا يدوم فيها حال ، وقد مضى على اربعون سنة اعمل فى هذا الفندق ، ومر على كثير من الاهوال التى يشيب لها الولدان ، فكم غزا اللبنانيون واهل البلاد المجاورة هذه المدينة من البر ، وكم سطا عليها القرصان والجنود الأجانب من البحر . وما اكثر الحكام الذين استبدوا فى حكم اهلها من مسلمين ونصارى . وقد تولى حكمها مرة رجل نصرانى يقال له (ابو عسكر الجبيلى) فعاث فيها الفساد واسرف فى القتل والتعذيب والارهاب ، وغره شيطان الظلم والقوة فظن ان لن يقدر عليه احد وامعن فى طغيانه وتجبره . فقاسينا منه الامرين ، واصابنى من اضطهاده وعنته بلاء كثير . ثم ذهب كما ذهب قبله وبعده كثيرون من امثاله ، وسبحان من له الدوام »

فقال حسن : « وما ظنك بمسألة الجزار هذه ، هل يطول امرها ؟ »

قال : « ان نبأ قدوم الامير يوسف وجيشه لم يصل الى المدينة الا منذ ساعات ، وقد علمت به قبل ان يعلم به الجزار نفسه ، اذ سمعته من الرسول الذى حمله عند مروره بالفندق فى طريقه الى قصر الحكومة . وعما قريب نرى ونسمع ما يكون من شأن الفريقين »

□

فى صباح اليوم التالى ، استيقظ حسن وعماد الدين على ضجة كبيرة فى الفندق وخارجه ، فنهضا مذعورين وهما يحسبان ان الحرب نشبت بين الامير يوسف والجزار . ولكنهما ما لبثا قليلا حتى تبينا من أصوات المنادين فى الطرقات ان الامر انتهى بالمصالحة ، وأن الجزار خارج فى موكبه لمقابلة الامير يوسف فى السهل الرملى المعروف باسم (المصطبة) وكتابة عهد الصلح ، فقال حسن : (الحمد لله الذى كشف عنا الضر » . ثم التفت الى عماد الدين وقال : « الا

ترى ان نخرج لمشاهدة مجلس الصلح ؟ »

فقال عماد الدين : « انني طوع ارادتك ، ولـكننا تأخرنا عن الوصول الى عكا كثيرا ، فلنذهب الى صاحب الفندق لعله يستطيع ان يكترى لنا جوادين نركبهما فى رحلتنا ، ثم نعجل بالرحيل ، فأبوك لا بد قد سئم طول الانتظار فى عكا ، كما انى لا آمن ان يغضب على الشيخ ضاهر »

فقال حسن : « لقــد نطقت بالصواب ، فهيا بنـا الى صاحب الفندق »

ولما بحثا عن صاحب الفندق علما انه ذهب الى المصطبة لمشاهدة الصلح ، فاستقر رايهما على اللحاق به ومباحثته فى أمـر اكتراء الجوادين هناك

وفيما هما سائران بالقرب من قصر الحـكومة ، سمعا ضجة صادرة من جهته ، وشهدا كثيرين من الأهلين يعدون فى طريقهم اليه ، فأدركا ان الجزار خارج فى موكبه ، ووقفا حتى مر المركب فاذا بجماعة من الجنود المغاربة يتقدمونه لافساح الطريق ، ويعقبهم كوكبة من الفرسان ، يتوسطهم الجزار على جواد اصيل سرجه من الديباج المذهب ، وهو يلبس سراويل فضفاضة من الجوخ السميك ، وعلى كتفيه الجبة ، وعلى راسه القاووق المملوكى الطويل تحت العمامة ، وفى منطقته خنجر ، والى جانبه سيف معقوف ، وفى يده مذبة من شعر الخيل مقبضها من العاج . ومن خلف هؤلاء الفرسان فرقــة صغيرة من الجنود الاتراك المشاة ، ومعهم الطبول والابواق .

فلما مر الموكب تبعه عماد الدين وحسن حتى جاوز المدينة وساحة السور ووصل الى المصطبة ، وهى ارض رملية بها بعض الاشجار من الصنوبر والصبير ، وفيها اقيمت خيمة الامير يوسف تحيط بهـا خيام الحاشية والجنود

وترجل الجزار حينما اقترب من خيمة الامير ، ومشى مسرعا حتى دخلها ، وحيى الامير فى ادب واحترام ، ثم هم بيده فقبلها وكان هذا جالسا على وسادة فى صدر الخيمة ، وهو يرتدى الجبة والقباء

وعلى رأسه العمامة ، فلما راى الجزار جاءه معظما مستعطفا ، خفت حدة غضبه عليه وقال له : « لماذا لم تكف عن ترميم الحصون ؟ »

فقال : « حاش لله ان اخالف أمر الامير ، ولكن البنائين كانوا قد أوشكوا أن ينتهوا من ذلك قبل وصول الاوامر »

فقال الامير يوسف : « على كل حال ، اريد أن يقف كل عمل من هذا القبيل ، وان تخلى المدينة »

فقال الجزار : « سمعا وطاعة ، وأرجو ان يتفضل الامير بامهالنا بضعة أيام للقيام بما يريد »

قال : « اننا نمهلك اربعين يوما ، على ان تتم خلالها اخلاء المدينة والخروج منها »

فحنى الجزار رأسه موافقا ، ثم مال على يد الامير فقبلها ، وغادر الخيمة متأدبا ، ثم عاد بموكبه الى القصر

ولما عاد عماد الدين وحسن الى الفندق ، اجتمعا بصاحبه ، وطلبا اليه أن يعاونهما على اكتراء دابتين تحملانهما الى عكا ، فوعدهما بذلك ، لكنه لم يستطع تحقيق مطلبهما الا بعد يومين اذ وجد مكاريا لديه جوادان ، واستطاع أن يقنعه بحمل حسن وعماد الدين عليهما الى عكا لقاء أجر كبير

□

ودع حسن وعماد الدين صاحب الفندق ، وسارا يقصدان الخروج من باب الدركاه ، والمكارى خلفهما ومعه الجوادان يحملان امتعتهما ، فلما اقتربا من الباب وجداه مغلقا ، وسألا البواب عما دعا الى اغلاقه فقال لهما : « لا أدرى . ولكن الامر صدر بذلك من مولانا الوالى »

فوقفا مبهوتين ، ثم سألا البواب : « هل أبواب المدينة كلها اغلقت ؟ » . فقال : « نعم » . ثم حانت من عماد الدين التفاتة الى يمين الباب فوجد العمال عاكفين على ترميم السور فقال

لحسن : « ان الجزار يستعد للدفاع، وما احسبه الا قد اعتزم البقاء فى المدينة »

فقال حسن : « علينا اذن أن نحتال للخروج منها قبل أن تنشب الحرب بينه وبين الامير ، فكيف نستطيع ذلك ؟ »

فأخذ عماد الدين بيد حسن ، وانتحى به ناحية واسر اليه قائلا : « لا حيلة لنا فى الخروج بالجوادين والامتعة ، والرأى عندى ان نكتفى بما خف حمله ، ومتى صرنا خارج المدينة دبرنا وسيلة للركوب »

فقال : « لكن كيف نخرج من المدينة ؟ »

فأشار الى بناء كبير بالقرب من باب يعقوب وقال له : « ان هذا البناء دير لجماعة من القسس يقال لهم المرسلون الكبوشيون ، والسور وراء الدير مباشرة ، فاذا نحن دخلنا الدير وقصصنا على رئيسه قصتنا فقد يسمح لنا باجتياز السور من هناك »

قال : « افعل ما تريد فانى لا أخالفك فى شىء »

فعادا الى المكارى ، وطلبا اليه ان يعود بالامتعة الى الفندق ويسلمها لصاحبه ، ونفحاه ببعض المال فعاد لتحقيق طلبهما شاكرا ، ومضيا هما الى الدير عبر الزقاق الضيق الذى يؤدى اليه ، فلما بلغا بابه طرقاه ، فأطل أحد الرهبان برأسه من فتحة فوق الباب وسأل : « من الطارق ؟ » . فقال عماد الدين : « غريبان من المساكين يريدان الالتجاء اليكم »

فغاب الراهب قليلا ريثما استأذن رئيس الدير ، ثم عاد وفتح الباب ودعاهما الى الدخول ، ثم اغلقه كما كان وقادهما الى حجرة وجدا فيها قسيسا يرتدى قباء من الجوخ شد وسطه فوقه بحبل ، وعلى رأسه (طاقية) صغيرة سوداء مستديرة ، وفى قدميه نعل شدت أصابعهما اليها بسيور من الجلد

فهم عماد الدين بيد القس فقبلها بأدب واحترام وهو يقول : « أسعد الله صباحك يا حضرة البادرى » . وكان هذا هو اللقب الذى يطلق على رهبان تلك الطائفة

فرد البادرى تحيته بمثلها ، بلغة عربية سقيمة . واشار اليهما بالجلوس على وسادتين فى الحجرة فجلسا وهو يفحصهما بنظراته مخافة ان يكونا قد جاءا بدسيسة من الجزار

وقبل أن يسألهما عما دعاهما الى الالتجاء الى الدير ، قال عماد الدين : « لقد جئنا لنتضرع اليك كى تنقذنا من هلاك محقق ، فنحن غريبان جئنا من عكا ، وأردنا الرجوع اليها فوجدنا أبواب المدينة مغلقة بأمر واليها ، وفى تأخرنا عن العودة الى بلدتنا خطر كبير علينا وعلى أهلنا فيها ، فضلا عن خطر بقائنا فى هذه المدينة »

فقال البادرى : « وماذا نستطيع ان نصنع ، والوالى لا يمكن ان يقبل فتح الابواب ما دام قد امر باغلاقها ؟ »

فأخذ عماد الدين يشرح له المساعدة التى يطلبانها محاولا اجتذاب قلبه بما عهد فيه من اللباقة والاجلال والتعظيم ، فتأثر البادرى بتوسلاته وقال له : « لا بأس ، سادخلكما احدى الغرف المطلة على خارج السور ، لتنجوا من نافذتها حينما ينتصف الليل ويسود الظلام »

فقبلا يده شاكرين ، وظلا يسامرانه بالاحاديث بعض الوقت ، ثم مضيا الى الغرفة التى اختارها لهما فدخلاها واغلقا عليهما الباب بعد أن زودهما البادرى ببعض الطعام والشراب . ولبثا ينتظران حتى ينقضى النهار ويسود الظلام ليفرا الى خارج السور



حصار بيروت

انتظر عماد الدين وحسن فى غرفة الدير حتى انتصف الليل ، ثم نهضا فقفزا من نافذتها الى سطح سور المدينة ، ولم يكن بينه وبينها اكثر من متر ، فلما استقرا فوقه بقيا حينا لا يتحركان وقد ارهفا السمع وراحا يتأملان السهل الممتد خارج السور فى ضوء النجوم . فلما اطمأنا الى أن ليس هناك من يشعر بهما ، همس عماد الدين فى اذن حسن قائلا : « ان السور مرتفع عن الارض كثيرا ، وفى الوثوب من هنا خطر كبير »

فخفق قلب حسن جزعا وخوفا وسكت حائرا ، على أن عماد الدين سرعان ما عمد الى كوفيته فنزعها عن رأسه وكتفيه ، كما نزع منطقته ، وطلب الى حسن أن ينزع عمامته ففعل وناوله اياها ، فوصل بعضها ببعض بحيث صارت حبلا طويلا ، ربط أحد طرفيه بمنطقة حسن ، ثم طلب اليه أن يدلى نفسه من فوق السور الى الارض خارجه ، بينما امسك هو ببقية الحبل وأخذ يرخيه قليلا قليلا حتى وصلت قدما حسن الى الارض فى الوقت الذى افلتت فيه يد عماد الدين الطرف الآخر من الحبل ، فبغت وجزع لانه كان يعتزم بعد ذلك أن يثبت ذلك الطرف بأعلى السور ثم يتدلى ممسكا بالحبل حتى يصل هو الآخر الى الارض

على أنه حمد الله على وصول صديقه الى الارض بسلام ، ولم يشأ أن يضيع الوقت فى التردد والتفكير ، فأخذ يزحف فوق السور وهو يتطلع الى الارض حتى وصل الى موضع رأى الارض اقرب اليه لارتفاعها نسبيا ، فامسك بصخرة ناتئة فى السور ، مدليا جسمه نحو تلك الأكمة المرتفعة ، ثم افلت الصخرة تاركا جسمه

يسقط عموديا فوق الأكمة ، فأحدث ارتطامه بها صوتا مدويا ايقظ الحراس النائمين بباب يعقوب ، فخفوا الى مصدر الصوت ليروا ما هناك ، وسرعان ما انقضوا عليه كالذئاب ، وحملوه الى داخل السور وهو يئن من الألم ، اذ كانت السقطة قوية لم تتحملها ساقه التى كسرت من قبل فى المعركة التى دارت بينه وبين قاطعى الطريق .
وما وصلوا به الى مقرهم خلف الباب حتى كان قد وقع فى اغماء عميق ، فأخذوا يرشون وجهه بالماء حتى افاق ، وراح يصرخ من فرط الألم لكسر ساقه ، لكنه ادرك وهو يجيل نظره بينهم انهم لم يشعروا بهرب حسن ، فكان هذا أكبر عزاء له . وما زال يستنجدهم ويستثير شفقتهم حتى رثوا لحاله ورضوا ان يبعثوا بأحدهم فى طلب طبيب لتضميد جروحه وتجبير ساقه المكسورة

وكان البادرى رئيس الدير قد شعر هو ووكيله بالضجة التى حدثت عند باب يعقوب ، فأدركا ان الضيفين اللذين هربا الى خارج السور من الدير وقعا فى أيدى الحراس . وفيما هما يتداولان فى ذلك ، سمعا طرقا على الباب ، ثم جاءهما البواب واخبرهما ان احد الحراس يطلب طبيب الدير لاسعاف رجل وقع على الارض من فوق السور فانكسرت رجله ، فنهض الوكيل ومضى الى الباب فأطل من الكوة التى فوقه على الحارس المنتظر وسأله متجاهلا : « لمن تريدون طبيب الدير ؟ »

فقال الحارس : « نريده لاسعاف رجل قبضنا عليه خارج السور بعد أن سقط من فوقه وهو يحاول الخروج من المدينة »

فأدرك الوكيل انهم لم يقبضوا الا على احد الضيفين ، واراد أن يحتال لانقاذه ، ولانقاذ الدير فى الوقت نفسه من غضب الجزار ، فقال للحارس : « ان هذا الخائن الذى قبضتم عليه لا يستحق الشفقة ، فهو من خدم الدير الذين نرسلهم لابتياع المؤن من لبنان ، وكان الرئيس قد غضب عليه لخيانته وحبسه فى غرفة بأعلى الدير ، فحاول الفرار من النافذة ، لكنه وقع فى شر أعماله »

فجازت حيلة الوكيل على الحارس واعتقد ان المصاب المقبوض

عليه من خدم الدير ، فقال : « على كل حال ، انه الآن يئن من فرط الالم اذ كسرت ساقه ، ولا بأس بأن يسعفه طبيب الدير ، ثم نبعث به فى الصباح الى قصر الوالى فيلقى جـزاءه كمـا يريد رئيس الدير »

فقال الوكيل : « اذا لم يـكن بد من تطبيبه ، قيـاما بواجب الانسانية ، فالافضل ان نعيده الى الدير ، وسأستأذن الرئيس فى ذلك ، فاذا قبل لحقت بك لاحضار ذلك الخائن المصاب » . ثم اغلق الـكوة وعاد الى رئيس الدير ، فأخبره بالحيلة التى عمد اليها انقاذا لذلك الغريب المسكين ، ولابعاد الشبهات عن الدير ، فاغتبط الرئيس بذلك وقال : « لقد حاولنا انقاذه أولا حبا فى عمل الخير ، ولا شك ان انقاذه الآن أوجب لأنه جريح »

وكان الحارس قد عاد الى زملائه ، وانبأهم بما علمه من أن المصاب كان محبوسا فى الدير لخيانة ارتكبها فيه . ثم جاءهم وكيل الدير بعد قليل ، واكد لهم صحة تلك الرواية ، ثم طلب منهم معاونته على حمل المصاب واعادته الى الدير ، فقال الجاويش رئيس الحراس : « لـكننا لابد لنا من تبليغ أمره الى حضرة الوالى ، لاننا اعتقلناه خارج السـور بعد صدور الامر بعـدم الخروج من المدينـة أو دخولها »

فقال وكيل الدير : « اننا اشد رغبة منكم فى الانتقام من هـذا الخائن ، وسنتولى ابلاغ الامر الى الوالى فيما بعد » . وما زال يحاورهم ويموه عليهم حتى اقنعهم باعادة المصاب الى الدير ، فتعاون بعضهم على حمله ومضـوا به والوكيل معهم حتى أدخلوه الدير وارقدوه على وسادة فى احدى الغرف ثم انصرفوا

وخشى وكيل الدير أن يبلغوا الامر الى الجزار ، فعاد الى جاويشهم وانتحى به ناحية ، ثم شكره على همته ويقظته ، ومد اليه يده بصرة من النقود قائلا : « ان رئيس الدير بعث بهذا اليك تقديرا لشهامتك ويرجو أن تقبله بركة منه »

فتناول الجاويش الصرة ووجهه يفيض بالغبطة والابتهاج ، وصافحه

الوكيل مودعا وهو يقول : « وقد طلب منى الرئيس ان ابلغك رجاءه الا يبلغ أمر ذلك الخادم الخائن الى جناب الوالى ، لانه يرغب فى محاكمته بحسب قوانين الدير »

فقال الجاويش : « حسنا . ليكن جناب الرئيس مطمئنا ، فسأحقق طلبه هذا اكراما لانسانيته »

فعاد الوكيل الى الدير مغتبطا بنجاح مسعاه ، ولم يكن رئيس الدير بأقل منه اغتباطا بذلك ، ثم اشرفا على علاج عماد الدين من جروحه وكسر ساقه . واعدا غرفة لاقامته بالدير حتى يتم شفاؤه

□

كان حسن بعد ان وصل الى الارض خارج سور المدينة ، قد شعر بافلات الحبل الذى تدلى بوساطته من عماد الدين ، فوقع فى حيرة ، ولم يدر ماذا يفعل ، ثم لاح له أن يربط حجرا بأحد طرفى الحبل ويقذف به الى عماد الدين فوق السور ، ولكنه لم يستطع ان يرفع صوته لينبئه بهذه الفكرة مخافة أن يسمعه الحراس . وفيما هو فى حيرته هذه ، رأى عماد الدين فى ضوء النجوم قد دلى جسمه محاولا الهبوط من فوق السور ، ثم سمع صوت اصطدامه بالارض وصرخته متألما ، فخف الى مكانه لنجدته . لكنه ما لبث أن سمع ضجة الحراس وهم يفتحون الباب ، وايقن بأن عماد الدين لن يفيده شيئا ان يبقى بجانبه حتى يقبض عليهما معا ، فاستقر رأيه على النجاة بنفسه من أيدى الحراس . وابتعد مسرعا من ذلك المكان ، وهو لا يدرى أين يتوجه ، ولا يكاد يتبين الطريق

وما زال مجدا فى سيره حتى نال منه التعب والخوف بعد حوالى نصف ساعة ، فوقف ليستريح ، واخذ يتفرس فيما حوله فوجد انه فى ارض رملية مرتفعة ، وقمم جبال لبنان الشامخة تبدو الى الشرق ، تتخللها اضواء متفرقة كأنها فصوص من الماس او نجوم ترصع الفضاء . ثم رأى القمر بازغا فى ربعه الأخير فاستأنس بضوئه ، ولبث فى جلسته قليلا حتى ارتفع القمر فى الافق ، فأدرك على

ضوئه انه بالقرب من المصطبة ألتى حدثت فيها المقابلة بين الامير يوسف والجزار . وذكرته الاكمة التى جلس عليها بالليلة التى التقى فيها بعماد الدين قرب الصالحية فساوره القلق عليه وهاجت احزانه ولم يتمالك عن البكاء

وبعد قليل ، تجلد ونهض فولى وجهه شطر الاضواء المنبعثة من المنازل والمغارات القائمة فوق الجبال الشاهقة الممتدة امامه . وما زال سائرا فى تلك السهول الرملية حتى صادف تلا مرتفعا فصعد الى قمته وتفرس فيما حواليه ، فراى نورا يبدو قريبا منه ، فهبط من التل واتجه الى مصدر ذلك النور ، فلم يبلغه الا بعد ساعة . وادرك انه قرب من البحر اذ سمع هديره ، ثم تأمل البناء المنبعث منه ذلك النور فاذا هو منعزل والسكون يخيم عليه . فدار حوله حتى وجد بابا صغيرا ، فدنا منه وقرعه ويده ترتعش قلقا وخوفا ، فسمع صوتا من الداخل يقول : « من بالباب ؟ » . فقال : « رجل غريب »

وبعد قليل ، فتح الباب ، وظهر خلفه شيخ عجوز فى زى القسس وقال له : « مرحبا بك » . ثم ادخله واغلق الباب وتقدمه الى غرفة صغيرة بها مصباح زيتى خافت الضوء ، وليس فيها من الأثاث سوى حصير فوقه وسادة صغيرة . فترامى عليها متهالكا من فرط التعب ، وقال للقس : « عفوا يا سيدى فانا فى تعب لا مزيد عليه »

فقال القس : « لعلك فى حاجة الى الطعام » . فسكت عن الجواب ، ولكن القس فهم انه جائع فغاب عنه قليلا ثم عاد اليه ومعه ما تيسر من الطعام وقلة بها ماء . ثم انصرف وتركه وحده فى الغرفة ، فأكل وشرب وتمدد على الحصير فما لبث أن ادركه النوم ولم يستيقظ الا وقد طلع النهار

وعلم بعد ذلك أن البناء الذى اوى اليه هو مغارة النبى ايليا ، وهى بمثابة كنيسة يؤمها كثير من النصارى اللبنانيين للصلاه والتبرك، والوفاء بالنذور

فتح بيروت

تركنا السيد عبد الرحمن وقد اعتزم مغادرة القاهرة قاصدا الى عكا ومعه على خادمه الخاص ، للبحث عن حسن هناك

وكان قد عرف الطريق اليها من قبل ، فقال لعلى : « ان الطريق لا يخلو من خطر ومشقة ، ولكنى اعرفها جيدا منذ كنت اذهب الى الشام للتجارة ، وقد قطعتها فى المرة الماضية بسلام عقب فرارى من حملة الحجاز »

فقال على : « انى رهن اشارتك وعلى استعداد لأن القى بنفسى فى البحر أو النار فداء لك ، فهيا بنا الى هناك على بركة الله »

قال : « بورك فيك من صديق مخلص ، وارى أن نذهب الى عكا متنكرين ، فاعود أنا الى زى الطبيب المغربى الذى عرفت به هناك ، وتتنكر انت فى زى مساعد لى يحمل الجراب الذى به أدوات التنجيم والتنبؤ وضرب الرمل وما اليها ، ولكى تقوم بمعاونتى حين اضطر الى فتح المندل »

فقال : « لقد نطقت بالصواب يا سيدى »

ثم انطلقا حتى بلغا أول بلدة فى الطريق وهى مدينة بلبيس ، فابتاعا منها ما يحتاجان اليه من الملابس والادوات لذلك التنكر . ثم اشتريا هجينين ركباهما الى العريش ، ومن هناك اخذا طريقهما الى سوريا ، فالتقيا بالحملة التى كان على بك قد ارسلها بقيادة صهره محمد بك أبى الذهب لفتح غزة ، ووجدا أن الحملة قد حاصرتها من جميع الجهات تمهيدا لذلك الفتح

فقال السيد عبد الرحمن : « أرى أن نعدل الى طريق آخر نصل منه الى يافا ، حتى نكون بمأمن من ان يكشف أمرنا أحد من

رجال ابى الذهب » . فاستحسن على هذا الراى . وتحولا بهجينيهما الى طريق آخر يؤدى الى يافا ، وما زالا فى حل وترحال حتى بلغاها بسلام ، فوجدا اهلها يستعدون للدفاع وهم فى خوف من مجىء الحملة المصرية

وبعد ان استراحا قليلا فى يافا ، واصلا رحلتهما الى عكا ، فأقاما بها أسبوعين ، وهما يبحثان عن حسن فى كل مكان يظنان انه يقصد اليه ، فلم يقفا له على اثر

وعلما وهما فى عكا ان حاكمها الشيخ ضاهر الزيدانى ارسل كثيرا من الجند مزودين بالاسلحة والمؤن وعلى راسهم بعض اولاده لمساعدة الحملة المصرية فى غزواتها ، وفقا للمعاهدة بينه وبين على بك

فقال السيد عبد الرحمن : « لا ارى ان نبقى هنا بعد الآن ، اذ لا فائدة من البقاء ، وفيه علينا خطر ، ولعل الاوفق ان نذهب الى بيروت »

قال : « كما تريد » . ثم سارا من هناك قاصدين الى بيروت ، ومرا ببلدتى صور وصيدا حيث بحثا عن حسن فيهما ايضا فلم يجداه . وما كادا يصلان الى قرب بيروت حتى وجدا السفن الروسية قد ملأت ميناءها ، واخذت تطلق عليها مدافعها اجابة لطلب الشيخ ضاهر . وكان الامير يوسف قد ارسل اليه يستنجده لاخراج الجزار من المدينة ، واتفقا على الاستعانة بالاسطول الروسى الذى كان مرابطا فى قبرص حينذاك ، فى مقابل خمسة وعشرين الف قرش ، وجعل الامير موسىٰ ابن الإمير منصور شهاب رهنا عند الاميرال الروسى حتى يدفع ذلك المبلغ

وكان الجزار قد اتم بناء السور المتهدم ، واحكم تحصين المدينة ، فأخذ الاسطول الروسى يضربها من البحر حتى هدم جانبا كبيرا من السور والابراج ، ثم نزل جنوده وحاصروها من البر ، ولكن الجزار صمد فى دفاعه فبقى الحصار بضعة اشهرحتى مل الروسيون . وعادوا يضربون المدينة بمدافعهم من البحر

وفى ذلك الحين وصل السيد عبد الرحمن وخادمه الى بيروت ،



« وما كاد الأميرال الروسي يرى السيد عبد الرحمن حتى عرفه فرحب به . . »

فلما وجداها على هذه الحال ، قال السيد عبد الرحمن : « ماذا نصنع الآن ؟. وهل تظن أن حسنا يمكن أن يكون داخل المدينة مع من فيها من المحصورين ؟ »

فقال علي : « علم ذلك عند الله ، واذا كان سيدى حسن محصورا فيها فان الله قادر على ان يحفظه سالما »

فقال السيد عبد الرحمن : « انى عرفت أميرال الاسطول الروسى منذ جئت عكا للمرة الاولى ، وأرى أن نذهب لمقابلته لعلنا نفيد من ذلك شيئا »

قال : « هذا رأى حسن » . ثم سارا الى معسكر الروسيين خارج المدينة ، ورفعا علما أبيض دليل المسالمة ، فلما قبض عليهما الجند وسألوهما عما يريدان ، طلب السيد عبد الرحمن مقابلة الاميرال ، فساقوهما الى خيمته

وما كاد الاميرال يرى السيد عبد الرحمن فى زى الطبيب المغربى حتى عرفه فرحب به وسأله : « اين كنت منذ فارقتنا ؟ »

فقال : « قمت بجولة فى الديار المصرية لمزاولة مهنتى ، ثم عدت الى بيروت فاذا بكم تحاصرونها ومعسكركم قريب منى ، فجئت لأؤدى لكم واجب التحية واكون انا وتابعى فى خدمتكم وحمايتكم »

فتنبه الاميرال الى وجود تابع مع السيد عبد الرحمن ، وقال مداعبا : « يلوح لى أن مهنة التنجيم رائجة فى مصر ، لهذا عدت من هناك ومعك تابع ! »

فضحك السيد عبد الرحمن وقال : « يكفينى أن أنال رضاءكم السامى » . ثم اخذ فى ملاطفة الاميرال وأطرافه بالملح والفكاهات الى أن قال الاميرال : « لقد جئنا فى المرة الماضية ونحن فى نزهة بحرية لطيفة . اما فى هذه المرة فنحن فى حرب وضرب ، وعما قليل نضرب المدينة الضربة الأخيرة ، فاما أن يخرج منها الجزار واما أن ندكها على راسه »

فضحك السيد عبد الرحمن وقال : « ما دمتم تحاربون جزارا فالامر اهون من أن يحتاج الى اطلاق المدافع ودك الحصون ، ويكفى أن تهددوه بالذبح فيستسلم فى الحال ! »

فأعجب الاميرال بهذه المداعبة وحسبها تلميحا من الطبيب المغربى الى قرب استسلام الجزار ، فمضى يجاذبه اطراف الاحاديث ، والسيد عبد الرحمن يضمن كلامه ما يدخل السرور والامل فى النصر القريب الى قلب الاميرال

وفيما هو فى ذلك ، جاء بعض الجنود الروسيين ومعهم رجل عربى قالوا انه من اهل المدينة وقد هرب منها وقصد الى المعسكر الروسى مدعيا أن لديه رسالة يريد تبليغها الى الاميرال نفسه

والتفت الاميرال الى الرجل وأخذ يتأمله مليا ، ثم قال له على لسان الترجمان : « يلوح لى انى رايتك قبل الآن »

فقال الرجل : « نعم يا مولاى ، لقد تشرفت بمقابلتكم فى الاسكندرية حين كان أسطولكم راسيا فى مينائها ، وقد ... »

فقاطعه الاميرال وقال : « نعم نعم .. قد تذكرت الآن ، فانت الرسول الذى حملت الينا هناك رسالة من على بك فى القاهرة ، اليس كذلك ؟ »

قال : « نعم يا مولاى »

قال : « وماذا جاء بك الى بيروت اذن ؟ »

قال : « انى من رجال الشيخ ضاهر الزيدانى فى عكا ، واسمى عماد الدين . وقد أرسلنى الى مصر برسالة منه الى على بك ، فلما بلغتها وتسلمت الرد عليها ، كلفنى على بك حمل رسالته اليكم فى الاسكندرية . وحينما اردت الرجوع الى عكا لم اجد سفينة ذاهبة اليها ، فركبت سفينة وجدتها قادمة الى هنا على ان اقطع المسافة من بيروت الى عكا على جواد أو جمل . وما وصلت الى بيروت ودخلتها حتى أغلق الجزار أبوابها ومنع الخروج منها والدخول اليها ، فبقيت هذه الفترة الطويلة فى خطر القتل بنيران مدافعكم من جهة ، وبيد الجزار من جهة أخرى اذا هو علم بأنى من رجال الشيخ ضاهر »

فعجب الاميرال من هـذا الاتفاق العجيب وقال لعماد الدين : « وكيف استطعت الاختفاء كل هذا الوقت الطويل ؟ »

فقال عماد الدين : « يرجع الفضل فى ذلك الى جماعة من الرهبان

المسيحيين ، يقيمون بدير لهم على سور المدينة عند باب يعقوب ، فقد آوونى فى الدير وتكفلوا بأمرى منذ لجأت اليهم محتميا من ظلم الجزار وغدره . وما خاطرت بحياتى اليوم وخرجت من المدينة الى هنا الا لـكى ارد لهم بعض جميلهم على ، وذلك انى وجدتهم يبحثون عن رسول يبعثون به اليكم كيلا تضربوا ديرهم بمدافعكم لأنهم ليسوا من الاعداء ، فتطوعت لابلاغ هذه الرسالة »

فأعجب الاميرال بشهامته وسأله : « أين يقع دير القوم ؟ » .

فقال : « هو هذا البناء الظاهر من هنا قرب باب يعقوب » . واشار بيده الى الدير

فأصدر الاميرال امره الى قواد مدفعيته بأن يجتنبوا ضرب ذلك الدير ، ثم أمر بأن تعد خيمة ينزل بها عماد الدين والطبيب المغربى وتابعـه ، وان يصرف لهم ما يكفيهم من الطعام والشراب وكل ما يحتاجون اليه الى ان يقضى الله فى أمر المدينة بما يشاء

□

كان عماد الدين منذ وقعت عينه على السيد عبد الرحمن قـد لاحظ شدة التشابه بينه وبين صديقه حسن ، فخفق قلبه حزنا على فراق ذلك الصديق وانقطاع أخباره عنه . كما تذكر ما علمه منه من أن اباه سبقه الى عكا ، فرجح عنده ان هذا الطبيب المغربى ليس سوى السيد عبد الرحمن والد حسن الذى يبحث عنه

وما استقر المقام به فى الخيمة مع الطبيب المغربى وتابعه وجلسوا لتناول الطعام معا ، حتى التفت اليهما وقال : « هل لى أن أسال من أين جاء السيدان الى هذه المدينة ؟ »

فقال السيد عبد الرحمن مقلدا لهجة المغاربة فى كلامهم : « جئنا من المغرب ، وصناعتنا التطبيب والتنجيم »

فقال عماد الدين : « اى تطبيب واى تنجيم يا اخى ؟. لقد اكلنا معا عيشا وملحا فلا ينبغى لنا ان يموه بعضنا على بعض »

فاستعاذ السيد عبد الرحمن بالله من شر هذه الإسئلة المحرجة ،

ولا سيما بعد ان سمع محدثه يذكر للأميرال انه من رجال الشيخ ضاهر وانه حمل رسالة منه الى على بك فى مصر ، وحمل من هذا رسالة الى الاميرال . على أنه تجلد حتى لا يفضحه خوفه وقال : « لم اذكر لك الا الحق يا سيدى ، فاذا لم تصدقنى فاسأل الاميرال فهو يعرفنى منذ بضعة اشهر وقد صحبته فى سفينته من عكا الى دمياط »

فابتسم عماد الدين ، ورجح لديه ان ظنه فى محله ، ثم اراد ان يمضى فى امتحان محدثه ، فقال له : « اكنت فى دمياط ؟ حسنا .. لقد وضح لى الآن سر المشابهة بين سحنتكما ولهجتكما فى الحديث بسحنة أهل مصر ولهجتهم رغم محاولتك تقلد اللهجة المغربية »

فازداد خوف السيد عبد الرحمن ، ولكنه جاهد ليخفى خوفه وقال : « ان تابعى هذا اقام فى مصر زمنا طويلا ، وكانت أمى من مصر ، فضلا عن ترددى اليها كثيرا لمزاولة مهنتى »

فضحك عماد الدين ساخرا وقال : « اليس غريبا ان تغادرا مصر لمزاولة مهنتكما فى غيرها فى حين انها اوسع رزقا ، واهلها اكثر حاجة الى الكحل وغيره مما فى جرابكما »

فأخذ السيد عبد الرحمن يبتلع ريقه بصعوبة لجفاف حلقه من احراج محدثه اياه بأسئلته . وخشى ان يطول سكوته فيزداد الرجل ريبة فيه ، فقال له : « ان الله هو الرزاق ، وقد تعودنا التنقل من بلد الى بلد والحل والترحال بيد الله »

فضحك عماد الدين وقال : « نعم كل شىء بيد الله ، ولكنه جل شأنه جعل لكل شىء سببا ، فما هو السبب الذى جعلك تترك مصر الى مدينة محاصرة من جميع الجهات ؟! »

وهنا لم يطق على خادم السيد عبد الرحمن صبرا على هذه الاسئلة المحرجة المتلاحقة فقال لعماد الدين : « ما هذه الاسئلة كلها يا سيدى ؟ هل رأيتنا طلبنا منك رزقا أو سألناك اى سؤال ؟ »

فضحك عماد الدين ساخرا وقال له : « ان كنت قد اكثرت

من الاسئلة فما ذلك الا لانى من رجال الشيخ ضاهر حليف على بك حاكم مصر ، وقد يكون فى خروجكما منها بلا سبب معقول ما يضر بمصلحتهما ، فأسئلتى قانونية كما تريان »

فاغتاظ السيد عبد الرحمن من خشونة خادمه واغلاظه القول لعماد الدين ، وبادر الى انتهاره ترضية لهذا قائلا : « ومن أقامك محاميا عنى ؟ . . ان أسئلة السيد كلها من حقه ان يسألها . واذا صح ظنى فهو انما يريد ان يستفزنا ليحفزنا الى أن نظهر له ما نعرف من فنون التنجيم وغيرها »

وهنا كان عماد الدين قد انتهى من تناول الطعام ، فالتفت الى السيد عبد الرحمن وقال له : « أما فنون التنجيم فما أحسب أن فى الدنيا من هو أعلم منى بأسرارهاوخفاياها . مع أنى لا أحمل جرابا ، وليس معى كتاب ولا أنا مغربى . فهل تريد أن أقدم لك دليلا عمليا على ذلك ؟ »

فسبق على الى الرد على عماد الدين وقال متحديا : « هـذا هو الجراب وفيه كل ادوات التنجيم ومعداته ، فأرنا فنك لعلنا منك نستفيد ! » . قال هذا ونهض فجاء بالجراب ووضعه بين يدى عماد الدين . ولكن هذا نحى الجراب جانبا وقال : « لاحاجة بى الى مثل هذه الادوات » . ثم التفت الى السيد عبد الرحمن وقال له : « هل اقول ما علمته بفنى عنك ؟ »

فأوجس السيد عبد الرحمن خيفة من هذا التحدى ، لـكنه لم يسعه الا أن هز رأسه موافقا وقال : « قل ما عندك »

فقال عماد الدين : « ان اسمك عبد الرحمن . فهل هذا يكفى أم أقول أيضا ؟ »

فأجفل السيد عبد الرحمن وعلى ، وأخذ كل منهما ينظر الى الآخر وفى نظراتهما دلائل العجب والاضطراب . فتجاهل عماد الدين واستأنف كلامه فقال : «وقد تركت مصر يا سيد عبد الرحمن فى جمع كبير من مختلف الأجناس والالوان، ثم تخلفت عنهم فى الطريق واتجهت الى جهة اخرى للقاء بعض الأعزاء ، وبينهم ابنك حسن ! »

وهنا كان السيد عبد الرحمن وعلى خادمه قد بلغت دهشتهمـا

اشدها فوقفا ينصتان ذاهلين، بينما مضى عماد الدين فى الكلام قائلا : « ولكنك لم تجد الاعزاء الذين ذهبت للقائهم ، فرجعت الى مصر متنكرا فى زى طبيب مغربى ، وكان رجوعك من طريق البحر »

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عواطفه بعد ذلك وانفجر باكيا ، ثم هم بيدى عماد الدين يحاول تقبيلهما وهو يقول له : « كفى كفى يا سيدى ، وما دمت مطلعا على حقيقة أمرنا فاتوسل اليك بحق من تحب ان ترثى لحالنا ولا تفضحنا »

فبدا التأثر فى وجه عماد الدين وقال له : « طب نفسا وقر عينا يا سيد عبد الرحمن ، واعلم ان ابنك حسنا بمنزلة اخى بل هو اعز كثيرا لانى مدين له بحياتى »

فصاح السيد عبد الرحمن قائلا : « ابنى .. ابنى حسن .. هل رايته يا سيدى ؟ .. بالله أخبرنى اين هو ؟ » . ثم رمى بنفسه عليه واخذ يقبل كتفيه وهو يبكى وينتحب . وكذلك فعل على خادمه . فبكى لبكائهما عماد الدين . ثم اخذ فى مواساتهما والتخفيف عنهما، وروى لهما حكايته مع حسن من اولها الى آخرها . فلما انتهى من ذلك قال له السيد عبد الرحمن : « الا تظن ان حسنا بعد أن هرب من بيروت قد ذهب الى عكا ليبحث عنى فيها ؟ »

فقال : « هذا ما ارجحه ، وعلى كل حال ثق بانى لن يهدأ لى بال حتى يجمع الله شملنا به سواء اكان فى عكا ام فى غيرها »

وفيما هما فى ذلك اذ وصل الى اسماعهم صوت الابواق تدوى فى المعسكر ، ثم مالبثوا ان سمعوا أصوات المدافع منطلقة من البر والبحر على المدينة ، فخيل اليهم ان السماء ستنطبق على الارض وخرجوا من الخيمة مهرولين فاذا الجو قد امتلأ بالدخان والغبار . فادركوا أن الأميرال قد نفذ ما توعد به من ضرب المدينة ضربته الأخيرة . فلم يسعهم الا الرجوع الى الخيمة والانتظار فيها حتى تنجلى المعركة ويروا ما يكون

وفى صباح اليوم التالى وقف عماد الدين ومعه السيد عبد الرحمن وعلى خادمه امام خيمتهم ينظرون الى بيروت ويأسفون لما نالها من الهدم والتخريب

وفيما هم كذلك شاهدوا هجانا قادما من الجهة الغربية قاصــدا الى المعسكر ، فلما مر بخيمتهم عرف عماد الدين انه من زملائه رجال الشيخ ضاهر فناداه . وما كاد الرجل يراه حتى بغت وترجل عن هجينه وراح يعانقه ويقبله قائلا : « أين كنت يا أخى . لقد أقلقتنــا بطول غيابك »

فقال عماد الدين « ان حكايتى يطول شرحها ، وسأقصها عليك فى وقت آخر ، فقل لى أنت فيم قدومك الآن ؟ »

فقال الرجل : « ان الجزار كتب الى الأمير يوسف شــهاب بأنه مستعد لتسليم المدينة على أن يؤذن له بالخروج منها بأصحابه وأمواله آمنا ، فكتب الأمير الى الشيخ ضاهر راجيا أن يتوسط لدى الأسطول الروسى كى يكف عن ضرب المدينة ويرفع عنها الحصــــار ، فأجاب الشيخ ضاهر طلبه ، ثم ارسلنى برسالة الى الامــيرال ليبعث معى بفرقة من الجنود لتسليم المدينة الى الامير يوسف »

ثم مضى الرسول الى خيمة الاميرال فأبلغه رسالة الشيخ ضاهر ، فامر هذا بتنفيذ ما جاء فيها

ولم تمض ساعة حتى خرج الجزار واعوانه من المدينة وقد كســا وجوههم الخجل لما أصابهم من الفشل والانكسار ، ورغم الخراب الذى عم المدينة اخذ أهلها فى الاحتفال برفع الحصار عنها وخروجهــا من حكم الجزار

وفى مساء اليوم نفسه عاد جميع الجنود الروسيين الى ســفينتهم فى البحر، معتزمين الرحيل بعد أن أدوا مهمتهم ، وعــرض الأميرال على السيد عبد الرحمن أن يصحبه فى سفينته كما صــنع فى المــرة الماضية ، فاعتذر شاكرا ، ثم سار هو وعلى خادمه ومعهما عماد الدين الى صيدا ، فوصلوا اليها بعد مسير حوالى عشر ساعات على شاطىء البحر بالهجين . وهناك ودعهما عماد الدين على أن يسير هو جــنوبا قاصدا الى عكا ، بينما يسيران هما شرقا قاصدين الى دمشـــق عبر جبال لبنان . وذلك كى يبحثوا جميعا عن حسن فى تلك المناطق . ثم يكون لقاؤهم جميعا فى عكا بعد شهر

فتح دمشق

ركب السيد عبد الرحمن وعلى خادمه الخاص هجينهما وسارا من صيدا وهما لايزالان فى زيهما المغربى قاصدين الى دمشق

وبعد المسير ثلاثة أيام صاعدين تارة على ربى لبنان ، وهابطين تارة فى سهوله وأوديته ، وصلا الى سهل البقاع المشهور بخصبه . وهو واقع بين جبل لبنان من الغرب وجبل الشيخ من الشرق . فمكثا هناك يوما للاستراحة ، ثم استأنفا رحلتهما فقطعا وادى الحرير ، ثم وادى القرن المشهور يومئذ بكثرة من فيه من اللصوص وقاطعى الطريق

واخيرا دخلا دمشق من باب الجابية ، ونزلا بأحد فنادقها حيث باتا فيه ليلتهما واستراحا قليلا من عناء رحلتهما الشاقة . وفى الصباح غادرا الفندق واخذا يطوفان بأسواق المدينة وشوارعها ، وامضيا فى ذلك طول النهار وهما يمعنان النظر فى كل غريب يصادفهما لعله أن يكون ضالتهما ، ثم عادا الى الفندق فى المساء ، فتناولا فيه عشاءهما ، وامضيا بعض الوقت يرسمان الخطط ويختاران أحسنها للبحث عن حسن

وفيما هما جالسان فى اليوم التالى بأحد المقاهى الكبيرة ، يحتسيان القهوة وامام كل منهما نارجيلة يدخن فيها التمباك ، اقترب منهما أحد أهل المدينة وقد لفت نظره زيهما المغربى وحياهما فى أدب ولطف ، ثم بدأهما بالحديث قائلا : « لعل دمشق أن تكون قد أعجبت السيدين الكريمين »

فقال السيد عبد الرحمن : « الحق انها مدينة عامرة جميلة ، وقد وجدنا من لطف اهلها وكرم أخلاقهم ما انسانا مشاق الاسفار والشوق الى الوطن والاهل »

فقال : « ومتى كان وصولكم اليها ؟ »
قال : « وصلنا منذ يومين »
فقال : « اهلا وسهلاومرحبا بكما ، لقد شرفت المدينة كلها بزيارتكما لها . وياحبذا لو ان هذه الزيارة كانت ودمشق فى ظروف عادية . اذن لطابت لكما الاقامة بها و . . . »
فقاطعه على وقال : « هل المدينة الآن فى ظروف غير عادية ؟ »
فتنهد الدمشقى ، وهز راسه أسفا وقال : « ليس هناك الا الخير باذن الله » . وسكت
فقلق السيد عبد الرحمن وقال : « انك رجل كريم الاخلاق يبدو عنصرك الطيب فى ملامح وجهك وحديثك ، ونحن غريبان عن المدينة كما ترى ، فهلا صرحت لنا بما طرأ على المدينة لنكون على بينة من الامر ؟ »
فقال الدمشقى : « لقد كانت دمشق الى ما قبل سنوات مدينة آمنة مطمئنة ينعم نزلاؤها جميعا بالراحة والهدوء والسعادة ، ثم تبدل الحال بعد ذلك غير الحال ، ولكن الله قادر على ان يعيد الامور الى نصابها »
فازداد قلق السيد عبد الرحمن وقال : « قد سمعنا ان أولاد العظم ولاة هذه البلاد من احرص الحكام على اقامة العدل والسهر علىالرعية ، وكان هذا مما حملنا على المجيء لزيارة دمشق ، فهل ما سمعناه ليس حقا ؟ »
فعاد الدمشقى الى التنهد وهز راسه اسفا واكتفى بأن قال : « ان ما سمعتموه هو الحق يا سيدى ، فالباشا والحمد لله لايدخر جهدا فى سبيل امن البلاد وسعادتها »
فقال السيد عبد الرحمن : « اذن ماذا هناك ؟ . . لعل الوفاق ليس تاما بين الباشا وبين الامير يوسف ، او لعل الشيخ ضاهر الزيدانى قد امتدت اطماعه الى هنا ؟ »
فقال الدمشقى : « لا هذا ولا ذاك ، ولكن النكبة جاءتنا من الخارج ، ولعلك تسمع بالمماليك الذين يحكمون الديار المصرية وكبيرهم الآن على بك ؟ »

فأجفل السيد عبد الرحمن عند سماعه اسم على بك ، وتذكر ما ناله من النكبات على يديه ، فقال وهو يشرق بدموعه : « نعم سمعت باولئك المماليك وكبيرهم المذكور ، ولكن ما علاقتهم بهذه البلاد ؟ »

فقال الدمشقى : « لقد ارسل على بك هذا حملة لفتح هذه البلاد والاستيلاء عليها ، وسمعنا ان هذه الحملة كثيرة العدد والعدة ويتولى قيادتها محمد بك ابو الذهب صهر على بك . وقد استولت على سواحل سوريا وما فيها من السفن بمساعدة الشيخ ضاهر الزيدانى ، كما سمعت بأنها فتحت طبريا ونابلس وغيرهما ، وبأنها الآن فى طريقها الى هنا ، ولهذا فالباشا واهل المدينة كلهم فى قلق عظيم ، ولعلكما مررتما بأسوار المدينة وشاهدتما ما يجرى فيها من اعمال الترميم والتحصين استعدادا للدفاع »

□

استعاذ السيد عبد الرحمن بالله من شر هذا الخطر الجديد ، وتذكر هو وعلى خادمه تلك الليلة التى قضياها فى الجامع الازهر مع اللاجئين اليه فرارا من الجنود الخارجين فى تلك الحملة ، ثم اراد معرفة الاسباب التى أدت الى ارسالها ، فقال لمحدثه الدمشقى : « وما الذى دعا على بك الى مد عدوانه الى هذه البلاد ، هل وقع خلاف بينه وبين الباشا هنا ؟ »

فقال الدمشقى : « لم يحدث اى شىء يدعو الى هذا العدوان ، ولكن ذلك الملوك الجبار الطاغية تمرد على الدولة العلية وطرد الباشا ممثلها من مصر ، ثم لم يكفه هذا فبعث بصهره هذا القادم الينا لفتح الحجاز بحجة الانتصار لشريف مكة وتأديب الخارجين عليه . وعلى كل حال ما ارى الا ان الدوائر ستدور على الباغى باذن الله . وسوف ندافع عن بلادنا تحت راية مولانا الخليفة المعظم ، وما النصر الا من عند الله ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

وتحقق السيد عبد الرحمن بعد ما سمعه من الدمشقى فى المقهى ،

ان فى بقائه فى دمشق أكبر الخطر على حياته ، ولـكنه قال لنفسه : « كيف اغادر هذه المدينة قبل استكمال البحث عن ولدى فيها ؟ » .
وبقى صامتا يفكر فى هذا الامر وكله حيرة وقلق واضطراب
ولم يسع خادمه الوفى الا أن يشاركه حيرته فبقى صامتا هـو الآخر ، وان اسـتقر رايه على أن يتبع سـيده كظله الى كل مكان يحل فيه ، ليكون عونا له فى كل ملمة ، ويفديه بحياته اذا اقتضى الامر ذلك
اما الدمشقى فادرك ارتباكهما ، وحسـب انهما خائفان لانهما غريبان ، فمال على السيد عبد الرحمن وربت كتفه متلطفا وقال : « لا تخف يا سيدى ، فانت وصاحبك فى حمانا ، وثق بأن كـل دمشقى لا يتأخر عن تقديم حياته وكل ما يملك فداء لضيفه . واذا تنازلتما بترك الفندق الذى تنزلان به لتقيما معى بمنزلى حتى يقضى الله بما شاء فى امر الحرب المنتظرة ، فانى أعد ذلك شرفا لى وحسن حظ »
فأعجب السيد عبد الرحمن بمروءة الرجـل وشهامته ولطف عباراته مما يدل على طيب عنصره وكرم اخلاقه ، وشعر كأنما ازيح عن صدره حمل ثقيل ، فالتفت اليه وعيناه مغرورقتان بدموع التأثر وقال : « بورك فيك يا سيدى وفى أهل دمشق جميعا ، انكم حقـا لأهل لـكل كرامة وفخار ، واعتقد ان الله ناصركم على أولئك الباغين »
ثم نهض مستأذنا فى الانصراف بعد أن شكر له اريحيته وكرمه وعرفه اسمه واسم على ، كما عرف ان اسمه هو سليمان ، فالح عليهما فى قبول دعوته اياهما الى الاقامة بمنزله ، ولما راى اصرارهما على البقاء فى الفندق أعطاهما عنوان منزله ليقصدا اليه فى اى وقت، ثم نهض ليوصلهما الى الفندق ويطوف بهما خلال ذلك بعض أسواق المدينة وشوارعها
وما زال الثلاثة سائرين وهم يتبادلون الاحاديث حتى وصلوا الى باب توما ، فخرج بهما سليمان الى ما هنالك من غياض وبساتين ، وداروا حولها حتى نهر بردى فما كادوا يشرفون عليه حتى شاهدوا

اهل القرى فى تلك المنطقة يعدون متصايحين وهم يسوقون امامهم ماشيتهم ، ووجهتهم المدينة . وسمعوا بعضهم يقولون : « جاء المماليك . . جاء المماليك »

فعلم السيد عبد الرحمن أن جيش ابى الذهب وصل الى حدود المدينة ، ولم يسعه الا الرجوع هو وخادمه مع صديقهما الدمشقى الى المدينة حيث اغلقت أبوابها بعد قليل ، وخرج جنود حاميتها الى الاماكن المعدة للدفاع فوق الاسوار ، وفى الابراج والحصون ، وتحصن كثيرون فى القلعة . ولجأ الاهلون الى المنازل خائفين مترقبين

وباتت دمشق تلك الليلة ساهرة تتقلب على أحر من الجمر ، وما اصبح الصباح حتى دوت المدافع ، وتسامع الناس بأن المدينة توشك أن تسقط فى ايدى الغزاة الفاتحين ، فقد جاءوها بجنود لا قبل لها بهم مزودين بأقوى الاسلحة المعروفة فى ذلك الحين ، وانضم الى الحملة المصرية جنود كثيرون من المتاولة والزيادنة والصفديين بقيادة أولاد الشيخ ضاهر

ولم تمض بضعة أيام حتى دخل الفاتحون المدينة وانتشروا فى انحائها للنهب والسلب ، وكانت قلعتها ما زالت صامدة للحصار ، ولكنها ما لبثت أن سلمت هى الاخرى بعد قليل

□

لجأ السيد عبد الرحمن وخادمه الى احدى الحجرات فى الفندق الذى نزلا به ، وهما بملابس المغاربة . فلما مضت ساعات بعد فتح المدينة ، وخفت حدة النهب الذى قام به الجنود والفاتحون ، قال على لسيده : « الا تأذن لى فى الخروج لتفقد الحالة خارج الفندق ، عسى ان نجد فرصة مواتية لمغادرة هذه المدينة حتى لا نقع فى يد ابى الذهب ؟ »

فقال السيد عبد الرحمن : « لا ارى ان تخرج الآن ، فالجنود ما زالوا يملأون الطرقات ، وقد يصيبك شىء من شرهم وطغيانهم

كما انى لا استطيع ان اغادر دمشق الا بعد ان اجد حسنا فيها او اتحقق انه ليس هنا »

وبعد ساعة أخرى ، لم يطق على صبرا على الانتظار فى مخبئهما ، فنهض وأتم ارتداء ملابسه المغربية وحمل الجراب على كتفه ، تاهبا للخروج وهو يقول : « ما اظن الجنود يطمعون فى أسلاب مغربى فى مثل هيئتى هذه » . ثم خرج من الفندق على ان يستكشف الحالة ويعود بعد قليل

وما كاد يصل الى الشارع حتى وجد أكثر المتاجر قد حطمت ابوابها ونهب الجنود ما كان فيها ، كما وجد أن سكان المنازل ما زالوا فى قلق وخوف واضطراب ، فحدثته نفسه بالرجوع ، لكنه خجل من أن يكون جبانا الى هذا الحد . وواصل السير حتى بلغ منعطفا الى يمينه فى ذلك الطريق ، فوقف مترددا بين الدخول فى هذا المنعطف وبين المضى فى الطريق الذى هو فيه

وفيما هو كذلك سمع صوت رجل يدعوه باسمه ، فاجفل وخفق قلبه بشدة مخافة أن يكون مناديه جنديا من جنود المماليك . ثم زايله بعض خوفه اذ تذكر أنه متنكر فى زى مغربى فلا يمكن أن يعرفه لاول وهلة اى أحد من عارفيه

وقبل أن يلتفت ليرى من ناداه ، كان هذا قد وصل اليه والقى عليه التحية ، فاذا به سليمان الدمشقى الذى تعرف اليه هو وسيده فى المقهى يوم مجىء الحملة . فرد تحيته بمثلها معربا عن سروره بلقائه

فقال سليمان : « أين السيد عبد الرحمن ؟ » . قال : « هو فى الفندق »

قال : « هيا بنا اليه ، فعندى له أنباء سارة »

فانبسطت أسارير وجه على ، وقال له : « سرك الله يا اخى دائما ، ما هى هذه الانباء ؟ »

فقال : « ستعلمها عما قليل حين نصل الى الفندق »

فلم يسعه الا السكوت وانطلق عائدا معه الى سيده فى الفندق . لكن الفضول غلب عليه بعد بضع خطوات فعاد يقول لسليمان :

« هل هذه الانباء خاصة بالمماليك الذين فتحوا المدينة اليوم ؟ »

فقال له : « اصبر يا سيد على وستعرف كل شيء بعد حين »

وكان السيد عبد الرحمن ما برح جالسا فى الحجرة والهواجس تدور فى راسه ، فلما وقعت عيناه على سليمان وهو داخل عليه مع على ، نهض مستبشرا بقدومه وابتسامه ، وبعد ان تبادلا العناق والقبلات ، اجلسه بجانبه ، وراح ينظر الى وجهه مندهشا مما يلوح عليه من دلائل الغبطة والابتهاج ، واراد أن يسأله عن السبب لكنه خجل ، وادرك سليمان ذلك منه فقال له : « لماذا لا تسألنى عما دعانى الى الابتهاج فى مثل هذه الظروف ؟ »

فقال : « خشيت أن أكون طفيليا فأثقل عليك ، ولا شك فى انك صاحب فضل وهمة ، فهات ما عندك بارك الله فيك »



أثر الحبيب

قال سـليمان الدمشقى لصديقه عبد الرحمن : « لقد علمت بأمر لم يعلمه احد من أهل المدينة بعد ، ولو علموه لتبدل كدرهم واضطرابهم سرورا واطمئنانا »

فأراد عبد الرحمن استطلاع هذا الأمر واستبشر بمنظر صديقه اذ كان يتكلم وأمارات الابتهاج تلوح على وجهه ، فقال له : « هل لك ان تتكرم باطلاعى على هذا الأمر »

فقال : « لما فتح المماليك المدينة وتسلموا القلعة،فر الوالى ولم يعد يستطيع الاقامة خوفا على حياته ، ثم بعث الى محمد أبى الذهب قائد الحملة المصرية يطلب اليه الاجتماع لعقد شروط التسليم حسب المعتاد ، فأجابه الى ذلك ، وكنت ممن ذهبوا مع الوالى الى مكان الاجتماع . وكان محمد ابو الذهب جالسا هناك متعجرفا منتفخا نفخة النصر ، وبين يديه أصحاب مجلسه من الأمراء المماليك . فلما دخل عليه الباشا وقف له تأدبا ، غير أن مخايل الكبرياء كانت تلوح على وجهه

« وكان لى صديق حميم بين رجال الباشا الذين وقفوا فى انتظاره خارج الباب بعدأن ترجل عن جواده ، فأسررت اليه أن ينتبه لما يدور بين الاميرين ، لنرى شروط التسليم ، ولبثت بعيدا أنتظر ارفضاض لمجلس وبعد قليل رفع الستر وخرج جميع الأمراء المماليك الذين كانوا فى مجلس محمد ابى الذهب ، ولم يبق الا هو والباشا،فاستغربت ذلك وقلت : (لعل فى الأمر شيئا) . وما خرج الباشا من عند أبى الذهب ركب جواده حتى سارعت الى صاحبى وسألته عما كان فقال لى : أبشر يا سليمان لقد فرجها الله) . فقلت : (وكيف كان ذلك) قال : ان عثمان باشا سأل أبا الذهب بعد ان خلا اليه : (باسم من تكتب

معاهدة التسليم ؟). فقال ابو الذهب : (نكتبها باسم على بك صاحب مصر) . فضحك عثمان باشا وقال : (أتفتح البلاد وتتجشم خطر الحروب والأسفار ويكون الفخر لذلك الجالس على عرشه فى القاهرة؟. وهب انه أمير البلاد وانت من قواده فكيف تخرج من طاعة خليفة رسول الله سلطان البرين وخاقان البحرين لتكون فى طاعة بعض أمرائه النابذين طاعته ؟ . ان مولانا السلطان مصطفى خان لأجدر بالطاعة ولا سيما انه لم يأت معك ولا مع الأمير ما يدعو الى غير ذلك ، وسيان عندى ان تكتب شروط التسليم بأسمك أو باسم على بك ، ولكنى ارى ان ليس من مصلحتك فى شيء أن تذعن لأمر على بك وتخالف امر السلطان ، فى حين ان على بك لا يفضلك بشيء ، وقد فتحت له الحجاز والشام وهو جالس فى القاهرة بين سراريه ومماليكه وخدمه وحشمه . وليس يخفى عليك أن فخر الفتح لا يعود على امثالك من القواد العظام بقدر ما يعود عليه هو دون أن يتجشم فى سبيل ذلك اى عناء . وهكذا يذهب كل تعبك أدراج الرياح ، ثم تكون فى الوقت نفسه عرضة لغضب مولانا السلطان وانتقامه ، فضلا عن مخالفة الشرع ، لأنكم انما تحاربون لتنصروا الافرنج على المسلمين ، وانما ساعدتكم ملكة المسكوف لكى تنال بغيتها وتنتصر على المسلمين فى بلاد الروملى. وهب انكم فتحتم الشام والحجاز فأين هذه البقعة الصغيرة من المملكة العثمانية الواسعة الأطراف ؟ وأين جنود الحجاز والشام من الجيوش العثمانية المظفرة التى فتحت العالم بسطوتها وبطشها وشجاعة قوادها ؟)

« فمال محمد أبو الذهب الى الاذعان ، واستشار الباشا فيما يفعل، فاشار عليه بأن يقلع عن الانقياد الى على بك ويعود الى طاعة خليفة الرسول وظل الله على الارض سلطان البرين وخاقان البحرين ،وبذلك ينال فخرا عظيما وينجو من الاخطار ومشاق الاسفار

« فصمت ابو الذهب قليلا واطرق مفكرا ، ثم رفع راسه وقال : (لقد نطقت بالصواب) . ثم طلب اليه عثمان باشا أن يقسم على السيف والكتاب ليكونن مخلصا للدولة العلية ويكف عن حربها، ففعل »

فقال عبد الرحمن لسليمان الدمشقى : « وماذا تم فى الامر بعد ذلك ؟ »

قال : « اننى عدت الى معسكر المصريين على اثر هذا الذى سمعته، فرايت خيمة الامير مغلقة ، والجنود المصريين فى هرج ومرج لكنهم قد كفوا عن الاذى . ثم دنوت من خيمة محمد ابى الذهب ، واسترقت السمع دون أن يشعر بى احد ، فسمعته يخاطب امرائه قائلا : (انكم تشكون مشقة الأسفار واخطار الحروب ، وما ارى الا أن على بك يريد اعدامنا بهذه الكتب التى يبعث بها الينا لكى نقذف بانفسنا فى أتون الحرب ، وكانما جبلنا من تراب وجبل هو من تبر ، ولذلك لا يشفق على حياتنا ولا على نسائنا واولادنا الذين تركناهم فى مصر لنسير فى بلاد الله ، بينما هو يعيش منعما بين حريمه وسراريه)

« ثم استطلع رايهم ، ففوضوا الراى اليه فقال : (ارى أن نعود الى بيوتنا ونكف عن الحرب وعن نبذ طاعة مولانا السلطان وها انذا اقسم لاحافظن على هذا العهد) . فردد الجميع هذا القسم،ولم يسعنى بعد هذا الا أن اسجد شكرا لله على نجاتنا من حكم المماليك ، ثم أسرعت لاطلعك على ذلك »

كان سرور عبد الرحمن عظيما بما سمعه من صاحبه الدمشقى ، ولم يتمالك ان رفع يديه الى السماء وقال : « تباركت يا رب ، ولك الحمد . ها قد انقلب الظالمون على أعقابهم وستقوم الفتن بينهم فيبيد بعضهم بعضا »

ثم التفت الى سليمان وقال له : « انكم من أهل هذه المدينة ، ونجاتها تهمكم اكثر مما تهمنى ، ولكنى اؤكد لك يا اخى أن فرح أهل دمشق كافة لا يوازى فرحى بحبوط مسعى هؤلاء المماليك ! »

وسكت وقد ملأت الدموع عينيه، فلم يجرؤ سليمان على مخاطبته وبقى صامتا يتأمل حركاته ، ثم عاد عبد الرحمن الى الحديث فقال : « اعذرنى يا اخى اذا رايت فى هذا الضعف ، لان هؤلاء المماليك نغصوا

عيشي وشتتــوا شملى واغتصبــوا أملاكى وامــوالى وابعدوا عنى ولدى » . واغرورقت عيناه بالدمع

فتعجب سليمان ، وود لو يقف على تفصيل ذلك فقال : « لا شك فى أن هؤلاء القوم قد امعنوا فى الظلم والفساد ، ولسوف ينالون جزاء اعمالهم ، ولكن هلا اطلعتنى على تفصيل امرهم معك لعلى استطيع مساعدتك ؟ »

فأراد عبــد الرحمن الكتمــان ، ثم رأى ان فى الادلاء بقصتــه الى صديقه الدمشقى ما قد يفرج كربه ، فتنهد وقال : « آه يا اخى ! لقد كنت أوثر كتمان هذا الأمر ولكننى آنست منك مروءة واخلاصا فملت الى الشكوى اليك تمثلا بقول القائل :

«ولا بد من شكوى الى ذى مروءة يواسيك او يسليك او يتوجــع »

وقص عليه حكايته من أولها الى آخرها ، فلما انتهى من ذلك قال سليمان : « والله ان حكايتك لمما يتفطر له القلب ، فهل انت مؤمل أن تجد ولدك هنا ؟ »

قال : « لولا الامل ما تجشمت الأخطار ومشاق الأسفار »

قال : « اذن هيا ننزل الى المدينة لعل الله ان يفتح لنا باب الفرج او يأتينا بأمر من عنده »

فنهضوا وخرجوا الى الاسواق واذا بأهل المدينة قد غمرهم الفرح اذ سمعوا مناديا ينادى بالأمان وعودة الناس الى اعمالهم لأن جنــد المماليك عائدون من دمشق

فتحقق عبد الرحمن صحة رواية صديقه فقال له:«ارى ان نذهب خارج المدينة حيث يجتمع الناس لمشاهدة عودة الجنود المصريين، فلعلى اجد ولدى بينهم »فوافقه على ذلك ، وسارا حتى خرجا الى حيث معسكر ابى الذهب ، فاذا بالمماليك والمغاربة يقوضون الخيام ويحملون الاثقال ، وأهل دمشــق ينظرون اليهــم ويعجبون لهــذا الانسحاب السريع . ولم يأت الغروب حتى سارت الحملة عائدة من حيث أتت

اما عبد الرحمن فكانت عيناه شائعتين فى الجماهير لعله يشاهد ولده حسنا ، ولكنه لم يقف له على أثر

ولبث بضعة أيام فى المدينة يواصل البحث عنـــه حتى يئس من لقائه ، فودع صديقه الدمشقى وأخبره بأنه اعتزم السفر ، فتأثر هذا وحزن لحبوط مسعاه ، ثم قال له : « انى والله لن يهدأ لى بال حتى أعلم بوجود ولدك ، وقد عرفت شكله وملامحه وسأراقب من أراهم من الغرباء فلعلى أقف على خبره فأبلغك ذلك ، ولكن اين تكون ؟ »

فقال عبد الرحمن : « انى ذاهب الى عكا الآن ، ولا أعلم أين تسوقنى المقادير »

قال : « الا ترجو أن تعود الى مصر بعد ذلك ؟ » . قال : « لا أدرى »

قال : « ان الله يدبر الامر كيف شاء ، وهو لطيف بعباده رحـــيم خبير »

وعلى اثر ذلك سار عبد الرحمن مع خادمه على جملين فى قافلة كانت سائرة الى صيدا على أن يسيرا من هناك الى عكا .

□

ما زالت القافلة تواصل سيرها وعبد الرحمن وخادمه فيها ، وبعد ان قطعت القافلة بضع مراحل قال خادم عبد الرحمن له : « اتأذن لى فى كلمة ؟ » . قال : « قل ما بدا لك يا على »

فقال : « اننا أينما نتوجه نجد عدونا أمامنا ، وقد تركنا مصر فرارا من ظلم على بك ، فاذا جئنا عكا كنا فى خوف من الشيخ ضاهر العمر ، لانه حليفه ، وعلى هذا لا نستطيع الظهور هناك ، ثم ان العثور على سيدى حسن امر لانقوى عليه الا بمساعدة الحكومة فهـــلا فكرنا فى وسيلة نتقرب بها الى الشيخ ضاهر هذا »

فقال عبد الرحمن : « انى اذا ذهبت اليه بنفسى وأطلعته على أمرى ، اخشى أن يأمر بقتلى »

فقال على : « خطرت لى فكرة اذا اذن لى مولاى أطلعته عليها » .
قال : « قل ما بدا لك »

قال : « ارى ان تلتمس مســـاعدة الاميرال الروسى قائد الســـفن الروسية فى البحر المتوسط ، فقد آنست منه ميلا اليك يوم كنـــا فى ضواحى بيروت ، ولو انك سألته أن يعطيك كتاب توصية الى الشيخ

ضاهر العمر ما أظنه يأبى ذلك ، ولا شك فى ان الشيخ ضاهرا يعمل بها لما بينهما من التحالف ، فما رأيك ؟ »

فتهلل وجه عبد الرحمن استبشارا بهذه الفكرة وقال : « بورك فيك يا على ، لقد نطقت بالصواب ، وليس افضل لنا من هذه التوصية لدى الشيخ ضاهر ، لكن كيف نعرف مكان العمارة الآن ؟ »

قال : « اذا وصلنا الى مدينة صيدا نستفهم عن مكانها ونسير اليها والاتكال على الله » . قال : « حسنا » . ثم تذكر فقد ولده فعاد اليه قلقه وقال : « آه يا حسن !. ترى هل يقدر لى أن القاك ؟ »

فقال على : « صبرا يا سيدى ، ان قلبى يحدثنى بأننا لا نلبث أن نلتقى به ، اذ قد تحقق لدينا من ذلك الشهم عماد الدين انه لا يزال على قيد الحياة ، ولعله الآن فى عكا لأننا لم نجده فى دمشق ، واذا كان هناك فسيلتقى به عماد الدين ويخبره بأمرنا فيبقى هناك فى انتظارنا »

فقال عبد الرحمن : « كل شيء بيد الله . وارى أن هذه القافلة بطيئة السير واحمالها ثقيلة ، فالافضل ان نسبقها »

قال : « لا يا سيدى ، لأننا لا نأمن المسير وحدنا فى الطريق ، فاللصوص فيه كثيرون من البدو وغيرهم ، ولا بد لنا من مرافقة القافلة اذ نكون فى أمن معها »

قال : « حسنا ، ولكن هناك أمرا آخر قد أهمنى كثيرا »

قال : « ما هو ؟ »

قال : « رايت فى الحلم يوم خروجنا من دمشق كأنى لقيت سيدتك فى ثياب سوداء ، فقالت لى عبارة لا ازال أذكرها وهى (انى لا أزال حية انتظرك فمتى تأتى الى ؟) . فتذكرت ما وعدنى به السيد المحروقى بمصر من انه سيطلعنى على أمرها اذا لم يتحقق قتلها ، فكيف نستطلع حقيقة ذلك ؟ »

فقال : « اذا شئت فانى أذهب الى مصر ، متى وصلنا الى عكا ، واسأل السيد المحروقى فى ذلك الامر ، عسى الله ان يحقق املك »

قال : « بورك فيك يا على ، ولعل الله قد قضى بجبر قلوبنا بعد ما قاسيناه من العذاب »

وبعد مسيرة بضعة أيام وصلا الى صيدا ، فدخل عبد الرحمن المدينة وسار توا الى البحر فاذا بالعمارة الروسية راسية فى الميناء ، فاكترى قاربا وقصد الى دارعة الاميرال وطلع اليها ، فسر الاميرال بلقائه وبش فى وجهه . أما هو فأظهر الانقباض فسأله الاميرال عن أمره فطلب أن يخاطبه على انفراد ، فخلا اليه فى غرفة هناك ، حيث قص عليه عبد الرحمن قصته وطلب اليه أن يوصى به الشيخ ضاهر العمر ، فرد عليه قائلا : « هذا أمر هين وساعطيك كتابا آخر الى على بك »

ثم امر بأن يكتب له كتابان احدهما الى الشيخ ضاهر والآخر الى على بك يؤكد فيهما التوصية به . ثم ختم الكتابين بخاتمه وسلمهما لعبد الرحمن قائلا : « مهما يصبك من ضيق فانا نفرجه عنك » . فقبل عبد الرحمن يده وخرج شاكرا . ثم ركب فى قارب وعاد الى صيدا فاذا بعلى ينتظره على الشاطىء فلما رآه أسرع اليه وسأله عما تم ، فأخبره بما كان فسر كثيرا . ثم عادا الى الخان وباتا تلك الليلة على أهبة السفر ، وفى صباح اليوم التالى ركبا من صيدا يريدان عكا

□

استيقظ حسن من نومه فى تلك الحجرة الصغيرة على صوت الناقوس يدعو الناس الى الصلاة ، فنهض وخرج من الدير الى حيث وقف على مرتفع واخذ ينظر الى ما حوله فاذا هو محاط بسهول من الرمال يحدها من الغرب البحر الذى لا ينفك يدمدم ليلا ونهارا ، ومن الشرق جبل لبنان وما فى سفحه من الغياض والبساتين والقرى

ولما عاد الراهب من الصلاة قال لحسن : « هيا بنا لأريك المغارة التى كان يبيت بها النبى ايليا ؟ » . ثم قاده الى باب صغير فتحه ،

ونزل به بضع درجات الى مغارة صغيرة فيها صورة صغيرة على قماش ، فقبلها الراهب قائلا : « هذه هى صورة النبى ايليا صاحب العجائب والمعجزات »

فقال حسن : « انه عليه السلام مشهور بالكرامات والعجائب » . ثم حانت منه التفاتة الى ركن من أركان تلك المغارة ، فشاهد رجلا مضطجعا فقال : « من هذا النائم ؟ » . فأشار اليه الراهب ان يسكت فسكت وقد استولت عليه الرهبة من منظر تلك المغارة ومنظر ذلك الراهب المسن بما عليه من اللباس الخشن

ولما خرجا قال له الراهب : « ان ذلك الرجل الذى رأيته نائما مصاب بروح شريرة وقد جاء ونام فى هذه المغارة لتخرج منه تلك الروح »

ثم عادا الى مسطبة مشرفة على البحر ، وجاءه الراهب بغليون ملاه تبغا وأشعله له فأخذ حسن يدخن ثم قال للراهب : « الا تستغرب مجيئى اليكم وانا لست مسيحيا ؟ »

قال : « ان هذا المكان يا ولدى يأتيه الزائرون من سائر الطوائف والملل بغير استثناء »

قال : « وكم تبعد مدينة صيدا من هذا المكان ؟ »

قال : « مسافة يوم تقريبا ، والطريق على شاطىء البحر ومعظمها فى الرمال »

قال : « وهل يستطيع الرجل أن يسير منفردا ؟ »

قال : « قد يستطيع ذلك ولكن الطريق لا يخلو من الخطر ولا سيما فى هذه الايام »

فقال : « ما الداعى لزيادة الخطر الآن ؟ »

قال : « الداعى الى ذلك كثرة خطايانا وعدم سيرنا على مقتضى أوامر الله سبحانه وتعالى ، حتى اختلف حكامنا وقام الخصام بينهم ونشبت الحروب ، فان صيدا تابعة لحكومة لبنان ولكنها دخلت فى حوزة الشيخ ضاهر العمر الزيدانى والى عكا . وهذا الرجل قد نبذ طاعة الدولة العلية وطمع فى السلطة وقامت بين

رجاله ورجال الامير يوسف حاكم لبنان حروب كثيرة فى أماكن مختلفة ، وفى السنة الماضية جاء ذلك الامير الشهابى بجند من لبنان ومن عسكر الدولة لفتح صيدا ، فأخرج منها الدنكزلى حاكمها من قبل الشيخ ضاهر ، وبعد حصار اسبوع جاءت المراكب الروسية التى هى فى هذا البحر بايعاز من الشيخ ضاهر وضربت جنود الامير يوسف بالقنابل وشتتها . أما هذه السفن — ومن بينها خمس سفن كبار — فانها مرسلة من كترينة ملكة المسكوف لمساعدة الشيخ ضاهر فى كل ما يريد ، وذلك لانها حليفته ضد الدولة العلية »

فقال حسن : « اذن الطريق خطر ولا يستطيع المرء أن يسير وحده فيه ؟ »

فضحك الراهب حتى اهتزت لحيته ثم قال : « بل لا يستطيع نفر من الناس ان يسيروا فى هذه الاصقاع آمنين من الخطر ، وترانا لذلك فى ضيق شديد »

فقال حسن : « حقا ان هذا لما يضيق عليكم ، اذ يقل عدد الوافدين من الزوار وغيرهم »

فقال الراهب : « ليس ذلك فقط ما نشكوه ، ولكن من عادتنا ، ومثلنا فى ذلك جميع الاديرة ، أن نبعث كل سنة وفدا من الرهبان يطوفون البلاد المجاورة والبعيدة لجمع النذور التى ينذرها أصحابها باسم صاحب هذا الدير قدس الله سره ، لكننا فى هذه الأيام لا نستطيع ارسال احد ، وقد مضت علينا بضع سنين لم نرسل احدا الى أن كانت هذه السنة فبعثنا بعض رجالنا يطوفون البلاد لجمع النذور ، وقد مضى عليهم بضعة اشهر دون أن يرجعوا ، فترانا من أجل ذلك فى قلق عظيم عليهم لئلا يكونوا قد أصيبوا بسوء من اللصوص فى الطريق بعد نهب ما جمعوه من هذه النذور »

فقال حسن : « لقد اخطأتم اذن يا سيدى بارسالهم »

قال الراهب : « اننا لم نرسلهم الا بعد رأينا ارسالهم ضروريا ،

لأننا نرسلهم ايضا للأديرة الاخرى فى الأقطار البعيدة لجمع المساعدات ، وللطائفة الارثوذكسية أديرة عديدة فى أماكن مختلفة فيساعد غنيها فقيرها »

فقال حسن : « ولكن الا تخافون وانتم فى هذه البرية من أن يسطو عليكم اللصوص أو قاطعوا الطرق ؟ »

فقال : « قلما خفنا ذلك لأن الله يحرس اماكن العبادة »

فقال حسن : « وهل للمسلمين مكان مثل هذا فى هذه الانحاء ؟ »

قال : « ان لهم مقاما قديم العهد جدا على مقربة منا ، يقال له مقام الشيخ الأوزاعى ، وقد مرت عليه أجيال عديدة والزائرون من المسلمين يقصدونه كما يقصدون هذا الدير »

فتاقت نفس حسن لزيارة ذلك المقام ، لأنه كان قد قرأ كثيرا عن كرامات الشيخ الأوزاعى ، فقال : « هل هو بعيد من هنا ؟ »

قال : « لا .. فهو لا يبعد الا مسافة تدخين غليون »

قال : « هل يمكننى الذهاب اليه ؟ »

قال : « نعم اذا مشيت على هذا الرمل مشرقا ، فانك تشرف عليه حالا ، وهو قائم فى قرية يقال لها قرية منتوش »

فقال : « الا ترسل معى أحدا من خدم الدير »

قال : « لك ذلك » . ثم نادى أحد الخدم فجاء وسار مع حسن حتى أشرفا على قرية صغيرة فى وسط تلك الرمال ، ثم وصلا اليها فاذا هى غاية فى الصغر ، وفى جانب منها قبة فيها ضريح ، فسار حسن توا الى المقام وقرأ الفاتحة ، ثم تذكر ما جاء من أجله الى تلك الديار فانقبضت نفسه وتذكر اباه ووالدته فاخذ يصلى ويتضرع الى الله تعالى الا تحبط مساعيه

وبعد أن أتم الصلاة والدعاء ، أعطى خادم الضريح بعض المال ، ثم عاد وقد انبسطت نفسه وتجددت آماله بلقيا والديه ، رغم ما كان يظن من قتل والدته ، وأحس كأنه اصبح فى عالم غير الذى كان فيه

فلما عاد الى الدير راى عند بابه جمالا كأنها قادمة من سفر طويل ، فتوسم الخير واسرع الى الدير ، فلقيه وكيله منبسط الوجه قائلا : « نحمد الله يا ولدى ، ان وفدنا قد عاد من سفره بخير » . وقاده الى غرفة من غرف الدير ليريه اياهم ، فوجدهم جالسين والشمس قد لوحت وجوههم والاسفار قد انهكتهم ، وراى بين ايديهم كيسا علم ان فيه التحف التى أتوا بها

فجلس اليهم واخذ يسألهم عن الامن فى الطريق فقال احدهم : « ان اشد الطريق خطرا ما بين مصر والشام »

فقال : « هل وصلتم الى مصر ؟ »

قال : « نعم ذهبنا اليها وعدنا منها بخير »

فقال : « وهل اهل مصر ينذرون لهذا الدير ايضا ؟ »

فقال الوكيل : « قلت لك يا ولدى اننا نرسل هؤلاء ليس لجمع النذور فقط ولكن لجمع المساعدات من الاديار الاخرى ، وهناك بقرب القاهرة دير يونانى ، وبعض الاديار القبطية تعودنا تلقى المساعدة منها »

فتأوه حسن لتذكره تلك البلاد التى فقد فيها والديه ، وقال : « عسى ان تكونوا قد نلتم ما اردتم ؟ »

فقال احد الرهبان القادمين : « اننا لقينا فى دير مار جرجس اكثر مما نلناه من سواه ، وقد وقع لنا فيه اتفاق غريب مع راهبة من راهباته . وذلك أننا نزلنا هناك ، وبعد أن اتتنا الرئيسة بالمساعدة المعتادة ، جاءتنا راهبة يظهر انها ليست يونانية مثل بقية الراهبات هناك اذ كلمتنا باللغة المصرية ، ولما علمت بأننا قادمون من الشام بكت ثم اخرجت من جيبها عقدا من الكهرمان الثمين وقالت : (انى اقدم هذا العقد لمقام النبى ايليا ، واذا وجدت ضالتى فسيكون على نذر آخر كبير)

فتعجبنا من قولها وأردنا الاستفهام منها فأومأت الرئيسة الينا الا نسألها فسكتنا ، ثم لما خلونا الى الرئيسة أسرت الينا امرا لا يمكننا ذكره ولكننا صلينا من اجلها صلاة خاصة وتضرعنا الى



« فلما رأى حسن العقد ، ظهرت على وجهه أمارات الدهشة »

الله أن ينيلها مرامها لأننا رأيناها منكسرة القلب فعسى أن يستجيب الله دعاءنا »

فأحس حسن بانقباض ، وصمت . أما الراهب فأخرج من جيبه عقد الكهرمان وقدمه لوكيل الدير لينظر اليه ، فما رآه حسن حتى خفق قلبه ، وتأمله فاذا هو عقد والدته بعينه ، وظهرت على وجهه أمارات الدهشة ، فتعجب الحاضرون من ذلك ولبثوا ينظرون اليه وهو يتأمل العقد ويقبله ، ثم رفع راسه الى الراهب وقال له وقد شرق بدموعه : « هل رأيت صاحبة هذا العقد فى ذلك الدير ؟ » . قال : « نعم »

فقال حسن : « هل تحققت وجهها جيدا ؟ »

قال : « لم أتحققه تماما ، ولكننى علمت من مجمل ملامحها ومن الوشم الذى على صدغها أنها من أهل مصر »

فقال حسن وقد وثب من مكانه : « هل عاينت الوشم الذى على صدغها ؟ . أهو ثلاث نقط متوازيات ؟ »

فنظر الراهب الى حسن متعجبا وقال : « ان الوشم الذى على وجهها كان على هذه الصورة حقيقة فكيف عرفت ذلك ؟ »

قال حسن : « هى والدتى » . ثم اخذ فى التأوه والبكاء ، فبهت الجميع ، ثم قص حسن على الرهبان قصته ، فعلموا أن اباه هو ضالة تلك السيدة ، وأنها تعتقد أن ابنها قتل وليس على قيد الحياة

فدنا أحد الرهبان من حسن وطلب الانفراد به ، فلما انفردا قال له : « بما انى قد عرفت أن تلك السيدة هى والدتك ، فأخبرك بأن السر الذى اسرته الى الرئيسة انما هو حكاية فقدكما ، وقد أوصتني بأن ابحث لها عن أبيك واخبرها . فهل تعرف عنه شيئا ؟ »

فقال حسن : « وهل ذكرت لك شيئا عن ولدها ؟ » . قال : « لا »

قال : « ذلك لانها قد تحققت قتلى » . ثم اخذ فى البكاء

فقال له الراهب : « خفف عنك يا ولدى واخبرنى بما تعرفه عن أبيك ؟ »

قال : « لا اعرف عنه سوى انه جاء الى عكا هاربا من وجه حكامنا المماليك ، وانا الآن لم أصل الى تلك المدينة ، وقد كنت عازما على المسير اليها منذ ايام ولكن خطر الطريق حال بينى وبين ما اريد »

ثم صمت واطرق مفكرا فى ذلك الاتفاق العجيب ، وبعد قليل رفع راسه وقال : « من لى بان أطير الى القاهرة واشاهد تلك الوالدة المسكينة واعلمها بأنى لا ازال على قيد الحياة ، لا شك انها حالما ترانى تقع فى دهشة وربما اصابها جنون لانها رات بعينها الجلادين يقودوننى بحبل ليغرقونى فى البحر ، وكيف تحلم بأنى لا ازال حيا وهى لو علمت ذلك لطارت الى بأجنحة الشوق ، فكل همها الآن لقاء أبى » . ثم رفع يديه نحو السماء ودعا الله قائلا : « يارب العالمين ، أسالك بجاه سيد المرسلين الا تحرمنا من الاجتماع مرة ثانية فى بيت واحد ، انك جابر قلوب المستضعفين »

فقال الراهب : « آمين يارب آمين » . ثم خرجا الى حيث كان الباقون . وعلم حسن أن لابد من الانتظار حتى تمر قافلة فيصحبها الى هناك لان الطريق لا يخلو من الخطر . فلم يسعه الا الانتظار على نار

□

خرج عبد الرحمن من صيدا مع خادمه برفقة جماعة يريدون عكا ، فمروا بمدينة صور التى كانت منذ القدم اعظم مدن سوريا قوة وثروة ، ومكثوا فيها يوما ثم ساروا منها يريدون عكا ، فمروا بالناقورة وهى جبل صخرى مرتفع واقع على شاطىء البحر ، يخترقه طريق يصعب سلوكها . لوعورتها وتعرضها لهجمات اللصوص . واذا نظر المار فيها الى أسفل الجبل هاب ارتفاعه عن البحر وسمع صوت الامواج تلطم قاعدته . واذا نظر الى فوقه

خيل له أن الجبل سيسقط عليه . فقطعوا ذلك الجبل بسلام وما زالوا يجدون السير ليصلوا الى المدينة قبل الغروب ، مخافة ان تغلق ابوابها قبل وصولهم . لكنهم أمسى عليهم المساء قبل ان يدخلوها ، وكانوا بقرب بابها الشرقى فقال التجار : « نخشى اذا سرنا الى المدينة ان يكون الباب مغلقا ، فلنبت الليلة هنا وفى الغد ندخل المدينة » . فنصبوا خيامهم وباتوا ليلتهم ساهرين مخافة ان يعتدى عليهم أحد

وكان عبد الرحمن وخادمه اكثر الجميع حذرا ، فقضوا معظم الليل جالسين ، ولما اصبح الصباح دخلوا المدينة جميعا ، فسار عبد الرحمن توا الى الخان الذى كان قد نزل به فى المرة الاولى ، فتلقاه صاحبه بالترحاب واخلى له غرفة من غرفه ، فمكث بها ذلك اليوم للاستراحة والاستعداد لمقابلة الشيخ ضاهر وعرض كتاب الامير ال عليه . وكان يخاف حبوط مسعاه ، فكان تارة يفضل كتمان امره حتى يقابل صديقه عماد الدين ، وطورا تحدثه نفسه بالمسارعة الى مقابلة الشيخ ضاهر ، فلبث فى المدينة وهو بلباس المغاربة اسبوعا ، واخذ يجول فى اسواقها ويسير الى مقر الحكومة لعله يلقى عماد الدين ، لكنه لم يقف له على أثر ، فاعتزم الانتظار حتى يلقاه ويستشيره فى امر الكتاب

ثم سمع أن الشيخ ضاهرا خرج فى فرقة من رجاله لمحاربة بعض اللبنانيين فى بعض الجهات ، فلبث ينتظر عودته وهو يسعى جهده فى البحث عن عماد الدين وحسن ، فمضى شهر ومعظم الشهر الثانى دون أن يعلم شيئا جديدا حتى كاد ييأس ، ثم ذهب يوما الى قصر الشيخ ضاهر وقد التف ببرنسه وخادمه يحمل له الجراب ايذانا بأنه طبيب مغربى يكتب الحجاب ويكتب الكتاب الخ . فلما أشرف على القصر عند الزاوية الشمالية لسور المدينة تعجب لهول منظره لأنه رآه اشبه بالقلاع لعلو أسواره ومتانة بنائه ، وفيما هو يتامل ذلك البناء وقد هم بالدخول رأى احد الجند قادما وعرف انه الهجان الذى ذهب الى بيروت برسالة الشيخ

ضاهر الى الاميرال الروسى ، وكذلك عرفه الجندى فحياه وساله عن أمره فقال : « انى أزاول مهنة الطب هنا » . واخذ على يطنب للجندى فى مدح مهارة سـيده فى تلك المهنة . وساله عبد الرحمن عن عماد الدين فقال : « انه سار برفقة الشيخ ضاهر ولا يلبث أن يعود »

فمكث عبد الرحمن فى المدينة اسبوعا آخر وفى الاسبوع التالى سمع الناس يتحدثون بقرب مجيء الجند ، وخرجت الموسيقى والعساكر للاقاتهم الى خارج المدينة ، فمكث هـو فى الخان حتى تحقق عودتهم فخرج مع خادمه الى قصر الشيخ ضاهر لعله يلقى صديقه عماد الدين ، وهناك لقيه الهجان فاخبره أن عماد الدين مصاب بجرح ويقيم بمنزله على السور فقال : « اذهب اليـه لعلى اطببه فأكافئه بعض المكافاة على فضله » . وسأل الرجل عن بيته فسار به الى طابية من الطوابى المبنية على السور ، وهناك دخل غرفة شاهد فيها عماد الدين ممددا فى الفراش ، لـكنه ما كاد يراه حتى نهض كأنه لا يشكو المـا وسلم عليه واجلسه بجانبه . اما على فبقى خارجا

ولما استتب بهم المقام سأله عبد الرحمن عن حسن فقال : « لقد مررت بكل السواحل ولم اقف له على خبر ، فلعله ابطأ فى الطريق . وانت ماذا فعلت ؟ » . فقص عليـه القصـة من اولهـا الى آخرها

فقال : « وهل اتيت بتوصية الى الشيخ ضاهر ؟ » . قال : « نعم ولـكننى لا ازال خائفا منه »

قال : « وهل تستطيع التطبيب حقا ؟ » . قال : « نعم » . فقال : « انى مصاب بجرح خفيف ولـكننى ساشيع انى تألمت منه كثيرا وانك قد شفيتنى بمهارتك ، وعند ذلك تتقرب من رجال الشيخ ضاهر وانا اعلم أن ولده ناصيف مصاب بجرح خفيف ايضا فى ساعده ، وقد قتل طبيبه هذه المرة فاذا شفى على يدك نلت حظوة فى عينيه وربما عينوك طبيبا للقصر ، وعند ذلك تتمكن من

استخدام الشيخ ضاهر فى البحث عن ولدك » . ثم أفهمه الكثير من عادات ناصيف وطباعه ، وأعطاه مقدارا من مرهم البيلسان فى قارورة لكى يستعمله فى تطبيبه

واخذ منذ ذلك الحين يتظاهر بتثاقل المرض عليه واشاع فى القلعة انه ظفر اتفاقا بطبيب مغربى اظهر فى تطبيبه مهارة كبرى حتى شفى . فذاع ذلك بين الجند والأمراء فى القلعة والقصر حتى بلغ الشيخ ضاهرا وأولاده ، فبعث ناصيف وهو فى فراشه يدعو اليه عماد الدين ، فلما ذهب اليه سأله قائلا : « سمعت بطبيب مغربى قد شفاك من مرضك بعد أن ثقلت وطأته عليك فهل ذلك صحيح ؟ »

قال : « نعم يا سيدى » . واخذ يطنب فى مدح مهارة طبيبه وفراسته الى أن قال : « وهو ليس طبيبا فقط ولكنه عالم بالفراسة ويعالج الداء بدواء واحد فقط وتظهر النتائج بسرعة » . فطلب منه أن يدعوه الى مقابلته

فذهب عماد الدين واتى بعبد الرحمن بعد أن أخبره بكل شيء ، فدخل وحيى ، فقال له الشيخ ناصيف : « قد سمعنا بمهارتك فى الطب فجئنا بك لتطبيب جرحنا ، فهل أنت واثق بنفسك » . قال : « ان الشفاء من عند الله وارى انى بمعونته تعالى استطيع شفاءك »

فأعجبه كلامه فقال : « هذا ساعدى وهذا جرحى فما هو الدواء عندك للجروح ؟ »

قال : « ان البلسم احسن الأدوية له ، وعندى منه قارورة احضرتها معى من بلاد الغرب لم استخدمها فى شفاء جرح غير جرح عماد الدين ، فاذا اذن لى مولاى طببته بها » . قال : « افعل »

فنادى عبد الرحمن خادمه عليا فجاءه بالقارورة ففتحها واخرج من الجراب ريشة صغيرة من ريش النعام غمسها فى المرهم ومسح بها الجرح بعد غسله ، ثم لفه بعصابة وقال : « يشفيك الله يا سيدى باذنه تعالى » . وما زال يتردد عليه حتى شفى تماما وقال له :

« انى معجب بك أيها الطبيب ، فهل أنت فى هذه الديار من قديم ؟ ». فقال : « لم آت اليها الا حديثا ، ولكنى طببت كثيرين وشفوا على يدى باذن الله لأنه هو الشافى ، وقد رافقت أمير المراكب الروسية مدة وسرت معه فى السنة الماضية من هنا الى مصر ، وقد أعجب بى واعطانى كتاب توصية للأمير الجليل الشيخ ضاهر »

فقال : « وأين كتاب التوصية هذا ؟ »

قال : « هو فى جيبى » . وأخرجه وناوله اياه فأخذه وقراه فسر جدا وقال : « ان لهذا الامير صداقة وطيدة مع ابى ، ولا اشك فى أنه حالما يقرأ كتابه ، ويسمع منى عن مهارتك فى الطب سيعينك طبيبا فى القصر ، لان طبيبنا قتل فى الحرب هذه المرة »

فهم عبد الرحمن بيد ناصيف وقبلها وقال : « انى على كل حال من عبيد مولانا »

فأخذ ناصيف الكتاب ، وطلب منه أن يعود اليه فى الغد ، فلما جاء فى الموعد قال له : « ان ابى يريد ان يراك » . قال : « سمعا وطاعة » . وسار خلفه الى القاعة التى يجلس فيها الشيخ ضاهر ، فوجده جالسا فى صدرها بعمامته وجبته وقفطانه ، وكان طاعنا فى السن اشيب الشعر عريض اللحية غليظ الحاجبين متجعد الوجه واسع العينين حادهما سريع الحركة ، مع كبر سنه لأنه كان اذ ذاك فى نحو التسعين من العمر ، ولكنه كان فى نشاط الشبان يركب الخيل كأحسن الفرسان ، وكان ذا هيبة ووقار . وقد جلس على وسادة ثمينة بقرب نافذة مشرفة على البحر ، والى جانبه وزيره ابراهيم الصباغ المسيحى فى افخر ما يكون من اللباس وهو يقرب سنا منه ، والى كل من الجانبين بقية اعضاء المجلس من الامراء والمشايخ

وكانت القاعة مفروشة بالبسط والسجاد ، وفى يد الشيخ ضاهر (شبق) طويل مرصع بالقصب حلى طرفه الاعلى بقطعة من الكهرمان ، وقد اخذ يدخن ما فيه من التبغ وينفخ الدخان فى الغرفة ، وكذلك كان يفعل الصباغ

فعجب عبد الرحمن لعظم هيبة ذلك الرجل التى زانها الشيب وحدة النظر ، وهم بيده فقبلها وقبل يد الصباغ ، وكان قد سمع عن تقربه من الشيخ ضاهر* ونفوذه لديه حتى اصبحت ازمة الاحكام فى يديه واصاب مالا طائلا ، ولم تبق فوق يده فى الحكومة يد لان الشيخ ضاهر لم يكن ياتى عملا الا بمشورته . ثم وقف امامهما متأدبا فاشار اليه الشيخ ضاهر ان يجلس فجلس

فخاطبه الشيخ ضاهر قائلا : « اانت الذى جاء بكتاب الأميرال اورلوف ؟ » . قال : « نعم يا سيدى »

فقال : « وكيف وصلت اليه وماذا كنت تعمل فى معيته ؟ » .

قال : « كنت فى عكا منذ سنة او اكثر ، فسار بى بعض رجاله اليه ، فلبثت فى معيته وقتا اضرب له الرمل واستخرج له الأسرار والمغيبات »

قال : « وهل لك اطلاع على ضرب الرمل والتنجيم ؟ » . قال : « نعم يا سيدى »

قال : « أريد ان امتحنك بسؤال فاذا عرفته نلت مقاما رفيعا وكنت من حاشيتى ، واذا اخطأته جوزيت جزاء صارما لا يقل عن القتل فما رايك ؟ »

فخفق قلب عبد الرحمن وخاف ان يقع فى مكروه لانه لم يكن قد مارس من ضرب الرمل شيئا غير انه كان يشاهد الرمالين فى مصر مذ كان تاجرا وكان يلاحظ اعمالهم وقد قرا شيئا عن تلك الصناعة حتى أحب ممارستها

وكان الله قدر له ذلك اذ ذاك حتى ينتفع به فى هذا الوقت ، ولما خاطبه الشيخ ضاهر فى هذا الامر لم يمكنه الا اجابة طلبه لان رفضه يثبت كذبه على اهون سبيل ، بينما اجابته قد يترتب عليها نجاح مشروعه فتشدد وقال : « نعم يا سيدى باذن الله تعالى »

فصمت الشيخ ضاهر برهة وكل من فى مجلسه شاخص الى ما يريد الاستفهام عنه وعبد الرحمن مختلج القلب ومرتعد الفرائص ولكنه أسلم امره الى الله وقال فى نفسه : « اما ان اعوم واما ان

اغرق والاتكال على الله » فنظر اليه الشيخ ضاهر قائلا : « يهمنى ان اعرف سبب رجوع محمد بك ابى الذهب عن دمشق بعد فتحها بغير داع يوجب ذلك ، وهذا امر قد شغل قلوبنا فى هذه الأيام فهل يمكنك معرفته ؟ »

فاستبشر عبد الرحمن بالفرج لانه كان يعرف سبب ذلك الانسحاب معرفة جيدة ، فاشتدت عزائمه واشرق وجهه ونظر الى الشيخ ضاهر وقال : « ان استخراج ذلك السر يحتاج الى مندل ، والأسرار عند الله يهبها من يشاء من عباده »

فقال الشيخ : « اضرب لنا مندلا الآن وانت جالس بيننا » . واراد بذلك أن يبقيه ويتحقق صدقه

فقال عبد الرحمن : « افى هذه القاعة يا سيدى ؟. ان ضرب المندل يحتاج الى اوعية كثيرة والى نار وبخور ومياه »

قال : « لا بأس ، اطلب ما تريد فنأتيك به »

قال : « اعطونى وعاء كبيرا واملأوه ماء نقيا » . فجاءوه به . ثم طلب كانونا به نار ، وشيئا من البخور النقى فجاءوه بكل ذلك فقال : « لا ينقصنى الا غلام لم يبلغ رشده ، ولكننى قد صحبت خادما تدرب على مساعدتى فى هذا الفن وهو يستطيع مالا يستطيعه الغلام الحدث غير البالغ الذى اعتاد ضاربو المندل استخدام مثله فى هذه الاحوال ، لأننى وجدت بالاختبار أن الاحداث يتعبون ضارب الرمل بما يستولى عليهم من الخوف مما يشاهدونه أثناء العمل من المناظر الغريبة ، اما خادمى فقد اعتاد هذا »

فقال الشيخ : « وأين هو خادمك ؟ » .

قال : « فى منزلى ، فاذن لى فى ان اسير لاحضاره وجلب بعض المواد اللازمة فى هذا العمل » . فأذن له وكلف عماد الدين أن يسير برفقته لئلا يفر او يتواطأ مع خادمه ، فسار الاثنان حتى اتيا المنزل فقال عماد الدين : « هـا ان باب الفرج قد فتح لك باذن باذن الله »

ثم افهم عبد الرحمن عليا ما يفعله عند فتح المندل ، وعادوا جميعا الى قاعة الشيخ ضاهر ، فجلس بجانب الكانون وفتح كتابه

والقى فى النار قطعة من البخور واخذ فى القراءة والدعاء كما يفعل المنجمون ، ووقف على بجانب وعاء الماء ، والشيخ ضاهر ورجاله شاخصون بابصارهم وكأن على رؤوسهم الطير

وبعد ان اتم القراءة قال لعلى : « ما ترى يا غلام فى هذا الماء ؟ » . فتامل على فى الوعاء ثم تراجع كأنه راى شيئا مخيفا . فقال له عبد الرحمن : « لا تخف وقل ما تراه »

قال : « ارى يا سيدى خياما عديدة منصوبة فى سهل خارج مدينة عالية الاسوار ، واعلاما عديدة مختلفة الاشكال ، وارى فى وسط تلك الخيام خيمة كبيرة امامها رجلان بسلاح كامل كأنهما حاجبان »

فقال عبد الرحمن : « ادخل الخيمة وانظر من فيها »

فأمعن على نظره كأنه يدقق فى البحث عن شيء وقال : « ارى بساطا كبيرا مفروشا فى ارض الخيمة ، وعليه رجلان : احدهما لابس قاووقا عليه عمامة ولباسه فاخر كأنه امير كبير ، والآخر يظهر من ملابسه انه وال كبير ، وعلى رأسه عمامة وعلى كتفيه فروة سمور ، وارى بينهما سيفا وكتابا اظنه المصحف الشريف وقد جعل الرجل الاول يده فوقهما »

فقال عبد الرحمن : « اسمع ما يقول واخبرنا به »

قال : « اسمعه يقول : (اقسم بالله العظيم والنبى محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وبراس مولانا السلطان خليفة رسول الله ان انبذ طاعة على بك واعصى اوامره ، واعود الى طاعة مولانا امير المؤمنين الخليفة الأعظم واحارب بسيفه واذب عن حقوقه ولا اعرف سلطانا سواه ، وان حنثت فى هذه اليمين ، كنت مخالفا للشريعة مجردا من الذمة والشرف ، واستحق القتل بهذا السيف !) .. »

فبغت الشيخ ضاهر وارتجفت لحيته فى وجهه ، وكذلك كان شأن جميع رجاله . ولم يعد يستطيع صبرا فقال : « تبا له من خائن » . ثم جعل يده على حسامه وهزه كأنه يهدده

فاوما اليه عبد الرحمن وقال : « اصبر قليلا يا سيدى لعلى ارى شيئا آخر »

ثم التفت السيد عبد الرحمن الى على وقال له : « وماذا ترى ايضا ؟ »

فتظاهر على باشتداد خوفه واضطرابه وقال : « امهلنى قليلا يا سيدى ، ريثما يهدأ روعى واستطيع التثبت من المناظر التى تبدو لى »

فقال له : « هدىء روعك ، ولا تخف من شىء ما دمت بجانبك ، ثم أمعن نظرك فيما امامك واخبرنا بما ترى »

قال وهو يرتعد متظاهرا بأنه ما زال خائفا : « ارى يا سيدى أن الرجل الذى يرتدى الفرو قد نهض ثم خرج وركب منصرفا »

فقال : « حسنا ، وماذا ترى غير ذلك ؟ »

قال : « ارى جماعة من الكبراء ، على رؤوسهم العمائم ، ويتدلى السيف الى جانب كل منهم فوق جبته ، وها هم أولاء قد دخلوا الخيمة الكبيرة التى خرج منها الباشا »

فقال السيد عبد الرحمن : « ادخل معهم هذه الخيمة وانظر ماذا يصنعون »

قال : «أرى الرجل الاول ما زال جالسا وامامه المصحف والسيف، وقد اشار الى الداخلين بالجلوس فجلسوا واخذ يحدثهم »

فقال : « وماذا يقول لهم ، اصغ جيدا لكلامه واحذر ان يفوتك منه شىء »

قال : « اسمعه يقول لهم : (ما زال على بك يبعث الينا بأوامره المشددة ، كى نواصل الاسفار والحروب ونتكبد المشاق والاخطار ، وهو ناعم بالعيش فى قصره بين حريمه وسراريه ، ويستأثر وحده بثمرة جهادنا وتعبنا . فما قولكم ؟) . . »

ثم تململ على فى مجلسه متظاهرا بالتعب ، فقال له السيد عبد الرحمن : « امض فى الاستماع لما يدور بين القوم من الاحاديث ، واخبرنا بم اجابوه »

فتنهد على ، ثم استأنف تفرسه فى الاناء وقال : « لقد تشاوروا فيما بينهم ، ثم فوضوا الراى له مؤكدين انهم اطوع له من بنانه فى كل شىء ، ثم عززوا ذلك بأن وضعوا ايديهم على المصحف والسيف اللذين

امامه واقسموا ليكونن رهن اشارته . وهذا هو يثنى على همتهم ويقول لهم : (ان على بك يريد ان تذهب اعماركم فى الحروب والفتوحات فى سبيل تحقيق مطامعه التى لاتقف عند حد . ولهذا ارى ان نرجع الى مصر وكفى ما قاسيناه من الغربة واخطار الحروب حتى الآن ، فاذا لم يعجبه ذلك فليس له عندنا الا هذا) . واشار الى السيف الذى أمامه »

وكان الشيخ ضاهر مرهفا سمعه لتتبع كل ما يقوله على ؛ فلما سمع عبارته الاخيرة على لسان ابى الذهب ، لم يتمالك عواطفه وأخذ ينتفض من شدة التأثر ، ثم نهض وجرد سيفه وراح يهزه بقوة قائلا: « ويل لك يا ابا الذهب ، ويل لك يا خائن ! »

وهنا تظاهر كل من على والسيد عبد الرحمن بأن الجهد قد نال منهما ، وطلبا ماء للشرب فجيىء لهما به . وبعد ان شربا جلسا يمسحان عرقهما وهما يلهثان تظاهرا بالتعب والاجهاد

ودنا الشيخ ضاهر من السيد عبدالرحمن وسأله : « أ انتواثق من صحة ما رواه غلامك ؟ » . فأجابه بقوله : « نعم يا مولاى اننى واثق بصدقه كل الثقة فهو لم يرو لى الا الصدق منذ استخدمته حتى الآن . ثم انى اضع نفسى رهنا عند مولاى حتى يتحقق الأمر بالوسيلة التى يراها »

فقال الشيخ ضاهر : « الحق انى جد معجب ببراعتك فى الطب والتنجيم ، ولهذا ستكون من حاشيتى منذ الآن ، للانتفاع بعملك فى أى وقت »

فهم السيد عبد الرحمن بيد الشيخ ضاهر وقبلها وقال : « انى عبد مولانا ، ولا شىء احب الى من هذا الشرف العظيم »

ثم امر الشيخ ضاهر بأن يخصص له مسكن خاص فى القلعة ، وان تخلع عليه أثمن الخلع ، ويجاب كل طلب له . وسر السيد عبد الرحمن بهذا لعله ينفعه فى البحث عن ولده وزوجته ، لكنه خشى ان ينكشف امره اذا لاح للشيخ ضاهر إن يمتحنه بفتح مندل آخر . واخيرا لم يسعه الا الرضا بما كان مسلما أمره لله فيما يكون . ثم التمس من الشيخ ضاهر ان يأذن له فى ابقاء خادمه معه ، فأذن له فى ذلك

خروج علي بك من مصر

امضى السيد عبد الرحمن وعلى خادمه اياما فى القلعة وهما موضع الاكرام والاحترام من كل من فيها . ثم جاء عماد الدين بعد ذلك فاجتمع بهما واخذوا يتجاذبون أطراف الحديث فى مختلف الشئون، الى أن قال عماد الدين للسيد عبد الرحمن : « يجب ان تنتهز فرصة الحظوة التى نلتها لدى الشيخ ضاهر للبحث عن حسن »

فقال السيد عبد الرحمن : « ان هذا اهم ما يشغل بالى ، ولكنى أخشى أن أخاطب الشيخ ضاهر فى ذلك فتقل ثقته بى وتحدثه نفسه بأنى لو كنت بارعا فى التنجيم حقا لاستطعت الاهتداء الى مقر ولدى . فما رأيك انت ؟ »

قال : « ولماذا تخاطب الشيخ ضاهرا نفسه فى هذا الأمر ؟ .. يكفى أن تتصل بحراس ابواب المدينة ، وتكلفهم ان يبلغوك امر اى شخص غريب صفته كذا وكذا يدخل المدينة أو يخرج منها ، وتذكر لهم أوصاف حسن »

فقال : « هذا راى صائب ، وسأعمل به فى اقرب وقت »

وفى صباح اليوم التالى خرج السيد عبد الرحمن وعلى من القلعة ، وطافا بكل أبواب المدينة موصيين حراسها بابلاغهما فى القلعة امر اى غريب تنطبق عليه أوصاف حسن ، وذكراها لكل منهم بالتفصيل

ثم تذاكرا امر سالمة ، فقال على لسيده : « أرى وقد داخلنا شيء من الاطمئنان على سيدى حسن ، ان تبقى انت هنا حتى يأذن الله بلقائه عما قريب ، وامضى أنا الى مصر فابحث هناك امر سيدتى والدته »

فقال السيد عبد الرحمن : « لقد نطقت صوابا ، وغدا استأذن فى

سفرك على انك ذاهب الى مصر لاحضار بعض الأدوات والمعدات والعقاقير اللازمة لاتقاننا مهنة التنجيم والطب »

وكان الشيخ ضاهر عند حسن ظن السيد عبد الرحمن وزيادة ؛ فانه ما كاد يعلم منه برغبته فى ايفاد خادمه الى مصر لذلك الغرض حتي وافق واظهر ارتياحه التام ، ثم نادى كاتب سره وامره بأن يبلغ امره بتزويد خادم الطبيب بكل ما يحتاج اليه فى سفره من مؤونة ومال وان تسير فى ركابه كوكبة من الفرسان لحراسته فى الطريق ذهابا وايابا ، مع اعطائه كتاب توصية الى على بك صاحب مصر لتسهيل مهمته باعتباره من حاشيته وأتباعه

ولم يسع السيد عبد الرحمن الا ان يقبل يد الشيخ ضاهر شاكرا. ثم خرج من عنده فقابل عليا وبشره بما كان ، وفى اليوم التالى كانت معدات السفر كلها قد اعدت فودعه طالبا له التوفيق ، وعاد الى القلعة ينتظر ما تأتى به الاقدار

اما على فما زال يجد السير ليل نهار حتى وصل الى يافا مع ركبه، فاستراحوا فيها يوما ، واشترى من هناك ملابس شامية استبدل بها ملابسه المغربية ، ثم واصلوا رحلتهم الى غزة فالعريش فالصالحية وكان السفر قد اجهدهم فقرر الاستراحة هناك يومين أو ثلاثة ثم يواصلون السفر الى القاهرة

وفيما هم فى الصالحية ، شاهدوا عند العصر غبارا عاليا الى الغرب منها قد حجب الافق وكاد يحجب الشمس ، ثم ما لبثوا أن علموا بأنه غبار جيش من المماليك اعوان على بك ، وقد خرج به من مصر هاربا من وجه صهره أبى الذهب ، ووجهته عكا للاحتماء فيها بالشيخ ضاهر حليفه

فقال على لنفسه : « هذا ما كان متوقعا منذ عاد أبو الذهب من دمشق حانقا معتزما التمرد والغدر » . ثم مضى ورفقاؤه فوقفوا لمشاهدة موكب الحاكم الهارب المطرود ، فاذا بالموكب يضم اخلاطا من الرجال والنساء والاولاد ، بين مشاة وركبان ، وعلى بك فى مقدمتهم على جواده ، وقد ازداد وجهه عبوسا وتجهما ولكن الذل والانكسار

غالبان على هيئته . فقال على : « هذه نهاية كل جبار عنيد ، وسبحان المعز المذل » . ثم تذكر كتاب التوصية الذى يحمله اليه من الشيخ ضاهر ، فرأى أن يسلمه له وان لم يكن فى ذلك ما يفيده شيئا بعد ان أصبح الأمر فى مصر لأبى الذهب ؛ فدنا من على بك ولوح له بالكتاب ، فأوقف هذا جواده وتناول الكتاب منه سائلا : « ما شأنك وماذا تريد ؟ »

فقال : « انى من اتباع الشيخ ضاهر الزيدانى فى عكا ، وهذا كتاب منه الى مولاى »

ففض على بك الكتاب وقرأه ثم طواه وجعله فى منطقته ، واشعل غليونه واخذ ينفث الدخان من فيه فى غضب يحاول كبته فلا يستطيع. ثم أخذ يسأل عليا عن أحوال الشيخ ضاهر ومدى قوة جنده وما الى ذلك ، وأخيرا قال له : « انى ذاهب الى عكا للقاء مولاك ، وستجد فى القاهرة ما تريد ان شاء الله » . ثم همز جواده واستأنف الموكب سيره . فعاد على الى رفقائه ، واقنعهم بأن ينضموا الى موكب على بك عائدين معه الى عكا . ثم واصل هو سيره الى القاهرة للبحث هنالك عما تم فى أمر سيدته

□

لبث حسن مقيما بكنيسة النبى ايليا فى ضواحى بيروت منتظرا مرور قافلة ذاهبة الى عكا ليصحبها اليها. ولكن انتظاره طال حتى مل الاقامة بتلك المنطقة . كما ضعف امله فى بقاء ابيه فى عكا حتى ذلك الوقت ، ولا سيما أنه لا يستطيع الظهور فيها وحاكمها الشيخ ضاهر متحالف مع على بك فى مصر ، فلن يتأخر عن القبض عليه وارساله اليه ان هو وقف على حقيقة أمره

وكانت هواجسه تشتد كلما تصور أن أباه رجع الى مصر ليرى ما أخره ووالدته عن اللحاق به الى عكا ، وأنه علم هناك بما أمر به على بك من اغراقه فى النيل وأخذ والدته للخدمة فى قصره

وفيما هو جالس يقطع الوقت بالتحدث مع قسيس الكنيسة ، علم منه بما كان من قدوم ابى الذهب لفتح دمشق ثم رجوعه الى مصر واستيلائه على مقاليد الحكم فيها بعد طرد على بك منها ، فكان سروره بذلك النبأ عظيما وقال : « هذه عاقبة الخيانة والظلم ، ولسوف يلقى على بك ما هو امر وادهى »

فقال القسيس : « على كل حال ما اظن ان ابا الذهب يكون اعدل حكما من على بك »

قال : « هذا رايى ايضا ، فأبو الذهب قد نشأ فى بيت على بك ، وتلقى عليه مبادىء الظلم والاستبداد وسفك الدماء والدسائس ، وبرع فى كل هذا الى ان اولاه مولاه كل ثقته وزوجه بابنته ، ولكن الله جل شأنه يسلط بعض الظالمين على بعض ، وكما دالت دولة على بك على يد ابى الذهب ، تدول دولة هذا على يد آخر قريبا باذن الله »

فقال القسيس : « نسأل الله ان يمحق الظالمين جميعا ، على انى ما زلت اوجس خيفة على ابى الذهب من على بك نفسه ، لأن مجىء هذا الى الشيخ ضاهر حليفه فى عكا انما هو للاستنجاد به وبالاسطول الروسى المتحالف معهما ، واكبر الظن انهما سيسارعان الى نجدته ومعاونته على استرداد حكم مصر من يد ابى الذهب ، وهذا لن يقوى على دفعهم مجتمعين »

فقال حسن : « نسأل الله ان يبيد دولة المماليك جميعا ، فان التاريخ لم يشهد حكاما فى مثل جبروتهم وظلمهم »

فأمن القسيس على دعائه وقال : « انه لا يهد أركان الممالك كالظلم والانغماس فى اللهو والفجور ، ولعل حكم على بك كان اقل جورا وفسادا من حكم اسلافه الذين سبقوه من المماليك »

فتنهد حسن وقال : « كان هذا صحيحا فى اول امره ، لكنه ما لبث قليلا حتى فاق بظلمه كل من سبقوه ، فكم خرب من بيوت كانت عامرة ، وكم سفك من دماء ، وانتهك من حرمات ». ثم غلبته عواطفه فأخذ فى البكاء حزنا على ما اصابه واسرته من ظلم على بك

فأخذ القسيس يعزيه ويحاول الترفيه عنه الى ان قال له : « لعلك

راغب في السفر الى عكا ، وقد علمت اليوم من قريب لى انه ذاهب اليها بعد يومين فى صحبة وفد من اللبنانيين بعث به الأمير يوسف شهاب الى الشيخ ضاهر ، فاذا شئت فانى اوصى قريبى هذا بأن يهيء لك مكانا معهم »

فهم حسن بيد القسيس وقبلها شاكرا . وفى اليوم التالى مضى به القسيس الى قريبه السالف الذكر ، وأوصاه به خيرا ، فهيأ له هذا جوادا وزادا ، والحقه بقافلة الوفد اللبنانى ، فسار فيها آمنا حتى وصل الى عكا بعد العصر بقليل

◻

ما كاد حسن يدخل المدينة من الباب الشرقى حتى استوقفه حارس الباب واخذ يتفرس فيه ، ثم سأله عن اسمه والى أين هو ذاهب ، فارتبك حسن ولم يدر كيف يجيب ، فقال له الحارس : « ان لدى امرا بحجزك وارسالك الى مولانا الشيخ ضاهر فى القلعة »

فاجفل حسن وملىء قلبه رعبا وفزعا ، لعلمه بتحالف الشيخ ضاهر مع على بك ، ثم تجلد قليلا وقال للحارس : « انى غريب عن هذه المدينة ، وليس فيها من يعرفنى او اعرفه ، فلعل شخصا غيرى هو المطلوب »

فقال الحارس وهو يشير اليه بالجلوس بجانبه قرب الباب : « كلا بل انت الشخص المطلوب نفسه ، ولا شك عندى فى ذلك ، اذ تنطبق على هيئتك جميع الصفات التى ذكروها لى »

فلم يبق لدى حسن ادنى شك فى ان امره قد انكشف ، وان الامر بالقبض عليه ليس سوى تمهيد لتسليمه الى على بك ، فلم يتمالك عن البكاء حزنا واسفا على سوء حظه الذى اوقعه فى يد ذلك الظالم من جديد

ورق الحارس لحالته ولم يدر سبب بكائه فقال له : « لا داعى للبكاء والجزع يا سيدى فان رسول الشيخ ضاهر الذى ابلغنى وصف

هيئتك وطلب حجزك وارسالك الى القلعة أوصى بارسالك اليها معززا مكرما ، واعتقد انك ستكون هناك اكثر حظا من الاعزاز والاكرام »

فقال جسن : « أى اعزاز وأى اكرام يا سيدى ؟! . اننى أتوسل اليك بكل عزيز لديك ان تطلق سراحى لأرجع من حيث أتيت ، فأنى لم أقترف أى ذنب ، ولا رغبة لى فى الذهاب الى القلعة »

فقال الحارس : « لو اننى خليت سبيلك ، لقبض عليك غيرى ، فقد علمت أن الأمر الذى صدر فى شأنك ابلغ اليهم جميعا ، واعلم ان الشيخ ضاهرا ورسوله ليسا فى القلعة الآن ، اذ خرجا للقاء على بك القادم الينا من مصر ولن يعودا الا غدا ، وستكون عندى فى ضيافتى معززا مكرما حتى يرجع الجميع الى القلعة ، ولن يكون الا ما تحب ان شاء الله »



اجتماع الشمل

وصل على خادم السيد عبد الرحمن الى القاهرة ، وقد استبدل بملابسه الشامية ملابس مصرية حتى لا يستغشه احد ، وقد وجد الناس فيها بين شامت بعلى بك ومتوجس خيفة من ابى الذهب

واخذ طريقه عقب وصوله الى دار السيد المحروقى راسا ، اذ راى انه خير من يسأله فى شأن سيدته دون أن يكون فى ذلك خطر عليه   فلما بلغ الدار وطرق الباب فتح له احد الخدم وسأله عما يريد ، ثم اخبره بأن السيد مسافر الى خارج القاهرة منذ حين ولن يعود قبل شهرين

فسقط فى يد على ، لـكنه لم يجد بدا من الانتظار حتى يرجع السيد من سفره ، على ان يبحث هنا وهناك خلال ذلك عسى أن يعلم شيئا عن مصير سيدته

ولم يسفر بحثه عن نتيجة ، فبقى فى حيرة وقلق الى ان عاد السيد المحروقى فخف الى مقابلته ، وما كاد يكشف له عن حقيقة امره ومهمته حتى قلب السيد كفيه عجبا واسفا وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لقد وقفت على المخبأ الذى لجأت اليه سيدتك بعد ان انقذت الست نفيسة زوجة على بك حياتها ، وكانت مختبئة فى بعض الاديار ، فلما قامت الثورة بين على بك وصهره أبى الذهب ، انتهزت هذه الفرصة وسعيت الى اخراج سيدتك من الدير ، وارسلتها مع بعض رجالى الامناء الى عكا للبحث عن السيد عبد الرحمن زوجها هناك ، وقد بشرتها بأن ابنها قد نجا ايضا بفضل الست نفيسة ، وفر الى سوريا »

فعجب على لهذا الاتفاق ، وقال : « جزاكم الله خيرا يا سيدى

على كل حال ، وهو القادر جل شانه على ان يجمع شملهم ويسعدهم بالامن والطمانينة بعد كل هذا الذى نالهم من ظلم على بك الذى نال جزاء ظلمه وخروجه من طاعة السلطان فاخرج من مصر مذموما مدحورا »

فهز السيد المحروقى راسه اسفا وقال : « حقا لقد طغى على بك وتجبر ولم يقف فى مطامعه عند حد ، ولكنه مع هذا ،كان خيرا من ابى الذهب ، فهذا وان تظاهر باعادة البلاد الى حوزة الدولة العلية دولة الخلافة ، يسعى فى الخفاء لكى ياخذها لنفسه ، وليس فى مصر من يحبه لما عرف عنه من الميل الى الغدر والخيانة »

فقال على : « وماذا يرى السيد فى استنجاد على بك بالشيخ ضاهر حاكم عكا والاسطول الروسى الموجود فيها الآن ، وهو يضم ثلاثة آلاف من الجنود الالبانيين (الأرناءوط) للهجوم من البر ، عدا من فيه من الجنود البحريين ؟ »

فقال السيد المحروقى : « مهما يكن من امر ، فلا شك فى ان الدولة الروسية لا تعاون هؤلاء الجهلة حبا فى معاونتهم ، ولكنها تفعل ذلك ، لتحارب بهم الدولة العلية وتشغلها بما يقومون به من فتن ودسائس وثورات داخلية »

قال : « وهل ترون ان ابقى فى القاهرة ، ام اعود الى عكا لاخبر سيدى بما كان والبحث عن سيدتى هناك ؟ »

فقال : « ان سفرك وحدك لا يخلو من الخطر ، فانتظر هنا الى ان تصحب قافلة أو حملة ذاهبة الى هناك » . ثم امر باعداد غرفة خاصة له فى منزله يقيم بها ، ودعا الله ان يختم مأساة اسرة صديقه السيد عبد الرحمن بما يسعدها وينسيها ما قاسته من شقاء وعذاب

□

عاد السيد المحروقى الى داره بعد ايام ، فدعا اليه عليا خادم السيد عبد الرحمن وقال له : « لقد جاءت الانباء بقدوم على بك

ميت وقدكنت اشتاق لمسه منذ أعوام » . ثم وجه خطابه الى الجمجمة وقال « أانت قطام بنت شحنة ؟ وقد جاز دهاؤك ومكرك على مئات من الرجال أبهاتين العينين فتنت ابن ملجم كما فتنتني ؟ وبهاتين الشفتين أغريته بقتل الامام كما فعلت معي . انك ستلاقينه عاجلا فى مكان لا تخفى فيه خافية . فى مكان تنال فيه كل نفس جزاء ما قدمت »

ثم التفت الى بلال وقال : « ماذا نعمل بهذه الجمجمة ؟ »

قال : «نحملها الى الفسطاط لأضعها بين قدمى خولة ذلك الملاك الطاهر»

قال : « لا اظنها تسر بهذا ولاأنا سررت به . وزد على ذلك انهذه الجمجمة لاتصل الى الفسطاط الا بعد أن تنتن وتتصاعد منها رائحة تنفرمنها النفس»

فأطرق بلال هنيهة أسفا لحرمانه حمل الرأس الى خولة ثم قال : « فاسمح لى اذن أن أحمل أثرا منها »

قال : « وما هو هذا الاثر ؟ »

قال : « اقطع الاذنين وفيهما الاقراط واقص هذا الشعر وفيه الضفائر الذهب »

قال : « لك ذلك فافعل »

ثم قرروا أن يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ثم يبرحوا المكان الى الفسطاط

□

عاد ريحان من عند البستاني وقد أعد كل ما ترتاح اليه سيدته من الفاكهة والاطعمة وأمر البستاني أن يشوى بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرا كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك . فقال فى نفسه لعلها غلبها النوم على أمرها من شدة التعب . ودنا منها فاذا هى بجانب القناة والظلام حالك والنار التى اوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها . فقال فى نفسه : « لانير الشمع وأعد الطعام ريثما تفيق » . فأنار الشمع . ولاحت منه التفاتة الى سيدته فرآها تتحرك فأقبل اليها فاذا هى تختلج اختلاج النزع وقد أصبحت جثة بلا راس ، ورأى دمها قد عكر القناة . فبغت ولطم وجهه ووقف لحظة يفكر فيمن عسى أن يكون قد فعل ذلك ، فقال فى نفسه : « لابد أن يكون قد حدث هذا بايعاز من عمرو بن العاص ، والقاتل قد فر الآن ولا سبيل اليه . فاذا أنا صحت وجمعت الناس تقع التهمة على راسى »

فتحير فى امره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كانه يحاول ان يلتمس لنفسه عذرا اذا تخلى عنها . فرأى انها اقدمت على جرائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والحلى الثمين ، وانه هو وحده يعرف مخبآتها فى الكوفة . فطمع فى الميراث وصمم على اغتنام الفرصة فهم بما عليها من الحلى فنزع الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها ، وجمع ما فى جيوبها وصناديقها من غالى الثمن وخفيف الحمل . وتركها غارقة فى دمها ولسان حاله يقول : « ذلك جزاء القوم الظالمين » . ودخل الشام فى الصباح التالى فاشترى اثوابا تنكر فيها ، وقصد الكوفة فاخرج ماخبأته قطام هناك من الاموال ، وابتاع لنفسه ضيعة اقام بها

واعد البستانى الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز فى كيس من القش ، وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لانها كانت كريمة تعطى الناس بسخاء . ولكنه ما وصل الى الخيمة حتى راى الحال كما ذكرنا ، وليس هناك الا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . فلا تسل عن رعبه لما رآها فى تلك الحال . فقال فى نفسه : « لا شك أن جماعة أقوياء تجرأوا على هذا العمل ، وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بانفسهم ، واذا انا أظهرت هذه الجثة جلبت على نفسى البلاء ، فمالى الا أن احتفر لها حفرة أخفيها فيها »

فاشتغل بالحفر وهو يحاذر أن يراه احد أو يسمع فاسه . ثم دفن الجثة واخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقى من الأمتعة الى بيته ، وساق جملا كان باقيا هناك ، وكتم خبر تلك الحادثة عن كل انسان



طلاق . . وزواج

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا عليها من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب ، فأرسلوا الرسول الى عبد الله لينبئه برجوعهم ، وأوصوه بأن لا يذكر له خبر قطام

وكان عبد الله قد خلا له الجو ، وصفا قلب الامير له ، ولكنه بقي مبلبل الخاطر على سعيد ، وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه ، وكلما لقي خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيدا وتمنيا سرعة وصوله ، وعبد الله يدبر اسلوبا يخبره به عن حقيقة حاله مع خولة

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفته بدار الامير ، اذا برسوله قد اقبل فصاح به : « ما وراءك ؟ »

قال : « ورائي سيدي سعيد وبلال »

قال : « واين هما ؟ »

قال : « تركتهما في سفح المقطم قادمين ، وجئت لأبشركم »

قال : « أهلا بالقادمين » . ونهض لساعته وخرج على فرس اسرج له ، ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين ، فترجل بلال للحال وهم بيد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله : « بورك فيك يا أسمر وبورك بشهامتك » . وهم سعيد بان يترجل فأشار اليه عبد الله أن يبقى على جمله لينزلا معا في دار الامارة

فساروا وسعيد يبتسم فقال له عبد الله : « ما الذي يضحكك ؟ »

قال : « يضحكني أننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص ، وقد كنا بالأمس نحاذر أن يسمع بنا أو يرانا »

قال : « لله في خلقه شؤون » . ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد : « لو أراد الله نجاح مسعانا ونجا الامام على كرم الله وجهه لما أهمنا النزول بهذه الدار »

فقال بلال : « لا تذكرني بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي ، ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الامام بذلك السيف المسموم ، وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو اراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة بأوقاتها »

قال : « ولكن الله سيجزى الظالمين ، أما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص ، وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم »

□

وبقيا فى مثل هذا الحديث حتى اقتربا من الدار فقال عبـــد الله : « لم اسمعك تذكر خولة . هل نسيتها ؟ »

فابتسم سعيد وقال : « كيف أنساها وأنا انما جئت التمسها »

قال : « وماذا تلتمس منها ؟ »

قال : « لا أدرى . . . »

قال : « أظنك تدرى ، ألا فاعلم أن خولة الآن زوجتى ، وقد زوجنى بها عمرو »

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه . . .

فتظاهر عبد الله بالجد وقال : « يلوح لى أنك لم تصدق قولى ، فأقسم بالله وتربة أبى رحاب أن خولة قد زفت الى ، وعقد قراننا على يد الامير . واذا كنت لا تصدقنى فاسأل كل من فى هذه الدار عن ذلك »

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الا أن قال : « وما يمنع أن تكون زوجة لك ؟ بورك لك فيها . ألست أخى ورفيقى وابن عمى ؟ »

قال ذلك وهو لايزال يشك فيما سمعه من عبد الله

ووصلا الى الدار ، فترجلا وسارا توا الى غرفة عبد الله ، وبعثا الى عمرو ينبئانه بقدومهما ، فأمر بأن يستقبل سعيد فى غرفة خاصة ، وبعث الى خولة وأبيها ، فلما جاءا أقبل عمرو الى الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجا ، فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيـــل يده والسلام عليه ، فرحب به ودعاه للجلوس

فقال سعيد : « اذا أذن مولاى فليأمر عبده بلالا بالدخول ليحضر هذه الجلسة »

فأمر بدخوله فانزوى فى بعض جوانب الغـــرفة متأدبا وفى يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ، ويفكر فيما سمعـــه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدا قائلا : « أظنكم تتوقعون ان تر ا قطام سجينة ؟ »

فقال سعيد : « نعم يا مولاى »

قال : « ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها اجراما بقتل خادمتها . وكنا قد أردنا استبقاءها مسجونة . أما الآن فاذا ظفرنا بها فلا قصاص لها عندنا غير القتل »

□

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام ، وقد ندم لأنه لم يصرح بالأمر بادىء بدء، وهم بالكلام فاعترضه بلال مستأذنا . فسكت فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال : « هل يأذن لى مولاى بكلمة اقولها ؟ » . قال : « قل »

قال : « كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها ؟ »

قال : « نطمع الناس فى البحث عنها بمال كثير »

قال : « وكم تعطون من يقبض عليها ؟ »

قال : « نعطيه مائة دينار »

قال : « أتشترطون أن يؤتى بها حية ؟ »

قال : « سواء علينا . جاء بها حية أم ميتة »

قال : « واذا جاء بخبر قتلها »

قال : « نقبل منه ذلك على أن يأتينا بما يثبت موتها »

فأخذ بلال يحل الجراب وهو يقول : « فليأمر مولاى الامير باعطائى مائة دينار » . وما أتم قوله حتى أفرغ الجراب بين يدى الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه بأصبعه حتى وجد الأذنين وفيهما الاقراط

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو : « ويلك ما هذا ؟ »

قال : « هذا هو شعر قطام ملطخا بدمها . وهـذه اذناها واقراطهـا .

واذا اخرجتمونى جئتكم براسها . فانى انما تخليت عنه اجابة لأمر مولاى سعيد » . قال ذلك ووقف وهو يشير الى سعيد

فقال سعيد : « نعم يا مولاى ، انا اشهد أن بلالا قتل قطام وحده ، واحتز راسها وجاءنى به وهو ينوى حله اليكم ، فأشرت عليـه بأن يكتفى بهذا الاثر تخلصا من نتن الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فأشار عمرو الى بلال أن احمل هذه الاقذار من هنا . فأعادها الى جرابه وتنحى

فقال له عمرو : « لك عندنا مائة دينار »

فشكر وأثنى وقال : « انى أشكر مولاى الامير على نعمته وأعترف بين يديه بانى لم اقتل هذه الخائنة لمال ، وانما قتلتها انتقاما للعدل » . واراد ان يفصل ما اجمله فانتبه الى انه لا يجوز ذكر الامام على فى المجلس فاكتفى بما قال

وتذكرت خولة ان اباها كان قد غضب عليها من أجل بلال ، فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضا أبيها عنه فقالت : « يابلال تقدم وقبل يدى سيدك » . واشارت الى أبيها ، فتقدم بلال وقبل يده فلما هم القوم بالانصراف وقف عبد الله ووجه كلامه الى عمرو وقال : « أشهد أيها الامير ان امرأتى هذه طالق منى ثلاثا » . واشار الى خولة

فأدرك سعيد ان ما قاله له صحيح وانه كان قد عقد قرانه عليها . ولمح الامير عمرو الاضطراب على وجهه فقال : « طب نفسا ياسعيد انماكان الزواج صوريا وقد صح الموقف الآن بالطلاق » . والتفت الى ابى خولة وقال له : « انى اخطب خولة منك لسعيد ؟ »

فقال ابو خولة : « هى جاريتك يامولاى فاصنع بها ماتشاء »

فأطرقت خولة حياء ، وعندما آن الأوان عقد قران سعيد بخولة فى مجلس عمرو فبارك لهما وهنأهما بالزواج

وبعد أيام استأذن عبد الله ابن عمه سعيدا فى الذهاب الى مكة للاقامة بها مع ذويه ، وودع خولة والأصدقاء وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاش الجميع كل فى مقامه عيشة لا يشوبها كدر الا حين يذكرون مقتل الامام على . ثم حين سمعوا بعد ذلك عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابى سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بنى أمية . وانما فعل الحسن ذلك حقنا للدماء ، ولم يتول الخلافة الا ستة أشهر ، فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق ، وبقى فيها الى انقضاء دولة بنى أمية



روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

فتاة القيروان	الانقلاب العثماني
الأمين والمأمون	العباسة أخت الرشيد
غادة كربلاء	استبداد المماليك
المملوك الشارد	أبو مسلم الخرساني
عروس فرغانة	شجرة الدر
عبد الرحمن الناصر	شارل وعبد الرحمن
عذراء قريش	أحمد بن طولون
فتح الأندلس	فتاة غسان
أرمانوسة المصرية	أسير المتمهدي
جهاد المحبين	الحجاج بن يوسف
صلاح الدين الأيوبي	١٧ رمضان